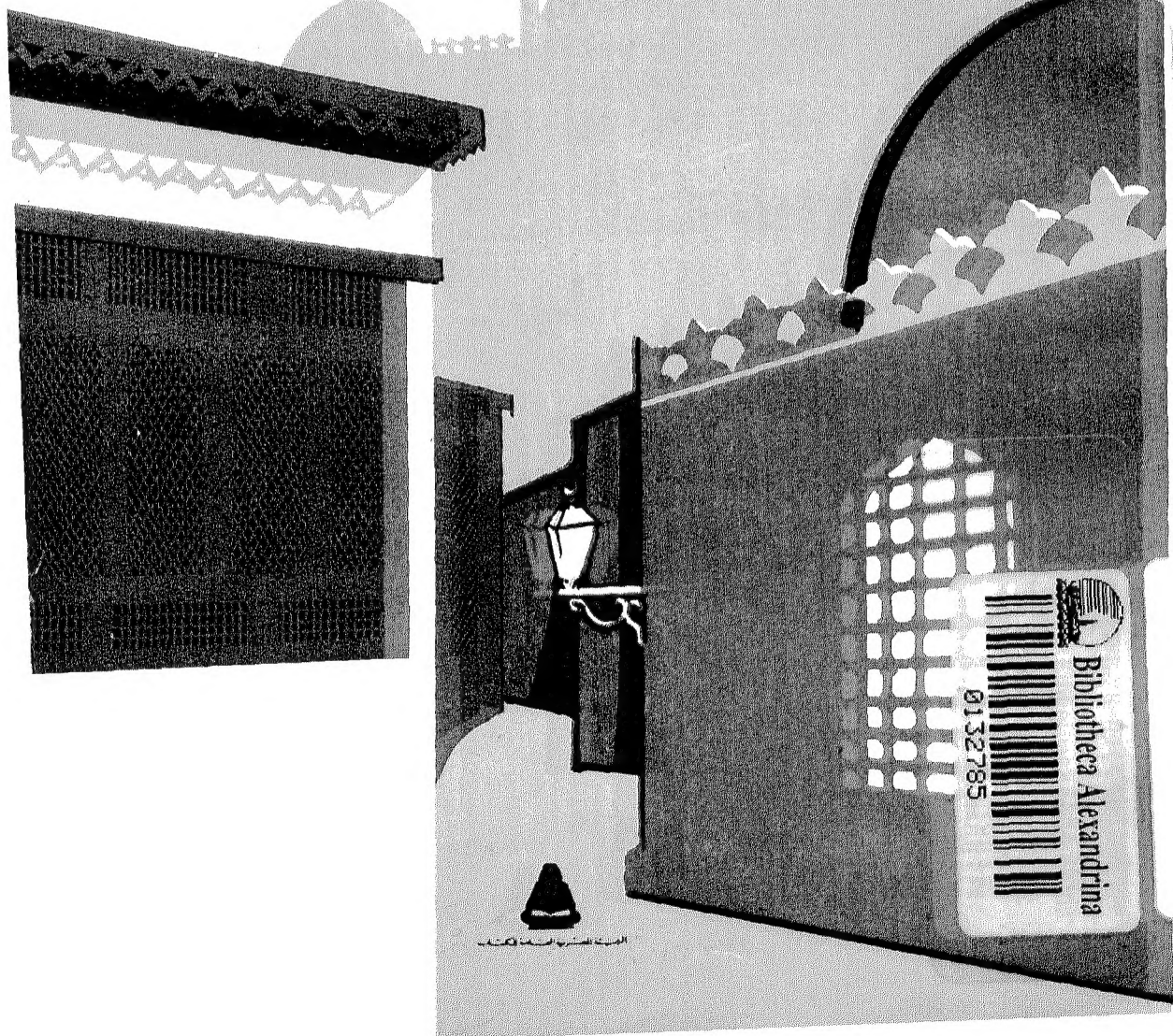


القاهرة في حياتي

دكتورة نعمات أحمد فؤاد



القاهرة في حياتي

القاهرة فحيات

د. نعمات أحمد فؤاد



المجموعة المصرية المسماة للكتاب

١٩٨٦

تصميم الغلاف : البير جورجى
الاخراج الفنى : مراد نسيم

المراجعة والاشراف الفنى : عفاف توفيق

كلمة

من طول ما عشت في القاهرة ، وعاشت القاهرة في ، أصبحت مجاليتها ومآسيتها هي الشاغل أردده في الحديث ، وأجده في الكتابة حتى أنه لا يكاد كتاب من كتبني يخلو منها : وقفة على فنونها (١) أو اطلالة على ربوعها (٢) أو تاريخا لرجالها (٣). أو اعلاء لتراثها (٤) أو وفاء لعطائها (٥) أو ولاء لنيها ، مقصورا عليه (٦) أو انتفاضة من أجلها (٧) .

وقد توزعت هذه الكتب خاصة ، من بين سائر كتبني ، عمري . لأنها قضايا عشتها ألما وصراعا ولهفة ثم فرحة فقد كتب الله لي فيها ، النصر على قوى البغي جميعا ، فانتصرت مصر بالكلمة العزلاء ولكنها ، بقوة الحق أمضى من كل سلاح . انتصرت مصر بما فيها ، على مسيرة تاريخها كله من اصرار ، وطاقة استمرار . وانتصرت ، مصرية ، بما في من وراثتها ، وبما على من أفضالها وعطاءاتها .

-
- (١) كتاب (أم كلثوم وعصر من الفن) .
 - (٢) كتاب (في بلاد الجميلة) .
 - (٣) كتاب (قلم أدبية) .
 - » (الجمال والحرية والشخصية الانسانية في أدب العقاد)
 - » (أحمد رامى قصة شاعر وأغنية) .
 - » (أدب المازلي) .
 - » (ناجى الشاعر) .
 - (٤) كتاب (التراث والحضارة) .
 - » (الأدب والحضارة)
 - (٥) كتاب (شخصية مصر) .
 - (٦) كتاب (النيل في الأدب المصرى) .
 - (٧) كتاب (صناعة الجهل) .
 - » (أعياد كتاب التاريخ) .
 - » (قبة الامام الحسين وقضية الحكم) .
 - » (كتاب مشروع عضبة الأهرام أخطر اعتداء على مصر)

وكان من طبيعة الألم والأمل أن يحفرا في النفس آثارا لا تمحي ،
فتداخلت هذه الكتب بين الحين والحين في هذا الكتاب سسطورا هنا ،
وسطورا هناك فقد غدت هواء أعيش عليه • والحي تتساوى أنفاسه عنده
بلا تحديد •• وهي تتتابع تحفظ حياته ، وتنسج أيامه •

وأيامى حروف

وحروفي أيام

د. نعمات أحمد فؤاد

القاهرة فى حياتى

نقطة تحول :

أتممت دراستى الابتدائية فى بلدتنا مغاغة من أعماق المنيسا بالصعيد . وأتممت معها حفظ القرآن الكريم . ولما كانت بلدتنا ليس فيها مدرسة ثانوية للبنات فى ذلك الوقت ، فقد اتجه والدى الذى كان يتحمس لتعليم البنات وله فى هذا كلمة محفورة فى ذاكرتى . كان يقول (البنت المتعلمة تدل على الأسرة أكثر من الولد) . . . ومعه الحق ، فان الأسر المصرية جميعا تهتم بتعليم الصبيان من بناتها وهنا يكون تخير الأسرة التى تحتفل بتعليم بناتها . هنا موقف ودلالة تقول .

كنا نريد مدرسة ثانوية بها داخلية فاستشرطنا الى مدرسة حلوان الثانوية للبنات . هذه المدرسة علامة ونقطة تحول فى حياتى عرفت فيها كيف تكون رسالة المدرسة ، وعرفت فيها حلاوة التفوق ، وعرفت فيها الأثر البعيد للرعاية والجزاء والتقدير ، وعرفت فيها ، بحكم الداخلية ، الخلو للدراسة والتحصيل الذى طبقته بعد هذا فى حياتى فعرفت معنى الخلو للعلم والعكوف عليه فامتألت حياتى ، كبيرة ، بالقراءة والكتابة والرحلة والندوة والقيم الجادة بقدر ما أستطيع .

خطوط عريضة لها تفاصيل كثيرة أذكرها وأذكرها كاملة كأنها وقعت اليوم لا أمس . . صورة عن عيني لا تغيب . ولكنى أريد هنا أن أتحدث عن حلوان نفسها . .

كان طريقى اليها قطار باب اللوق . . كنت أفرح بركوبه وأحفظ المحطات التى تتوالى بين الواحدة والأخرى دقائق معدودة . . حتى اذا

نزلت فى حلوان تمتعت عيني بضاحية هادئة تحيط بها الصحراء ..
الشارع الرئيسى فيها هو الذى يصل بين المحطة ومدرسة حلوان الثانوية
للبنات .. كان هذا الشارع يبدو فى عيني طويلا جدا هل السبب انى
كنت أقطعه سيرا على الأقدام أو انى أتعجل الوصول الى المدرسة فقد
أحببتها منذ اليوم الاول وانتميت اليها عاطفيا .. مرة أخرى أقول بحكم
الداخلية .. لقد كانت بيتى الثانى .. انتزع نفسى مرة أخرى من
الحديث عنها لأعود الى وصف حلوان المدينة لا المدرسة . كان الشارع
الرئيسى تكاد تعد المارة به .. ولاحظ والدى هذا فكان حريصا على
اصطحابى الى المدرسة فى أول العام الدراسى ثم اصطحابى أو من ينييه
عنه من فرع الأسرة فى القاهرة عند الأعياد ومواسم الاجازات .

حلوان :

كانت حلوان واضحة المعالم يقصدها الناس للعين المعدنية ، والحديقة
اليابانية ، والجو الصحى للاستشفاء وللشقاء .. كانت حلوان مشتبى من
مشائى مصر كاسوان والأقصر . وبها مثلما فنادق كبيرة جميلة أحدها
خلف مدرستى . وكانت حلوان دارا للأسر الكبيرة .

وينادىنى الحنين اليها بعد أن بعد عهدي بها فأزورها ولكن ماذا
أرى صورة غير الصورة . ومدينة غير المدينة .. لا أصدق عيني أن
الجميلة الهادئة الناعمة تعج بكل هذا الخلق ، وتضج بكل هذا الصخب ..
لقد غدت معقلا من معازل الصناعة .. لا بأس ولكن المصانع فى بلد كمصر
تمثل الصحراء .. منه يجب أن تقوم المصانع على أطراف المدن ،
وحيث الصحراء تنعش الى التعمير والحياة .. ولكن هذا موضوع آخر .

كانت مدرستى حلوان الثانوية هى الفصل والحديقة والملاعب والمطعم
والسرير والنوم واليقظة والصديقة والرفيقة والزميله والحدوة والحكاية
والضحكة والحلم والأمل .. كانت الشوق الى الأهل فى البعد والحديث
عنهم فى القرب . كانت الخطاب يصلنى من أبى ويصلنى به .. كانت
الانتظار واللهفة .. كانت الامتحان والدرجة .. كانت الفرحة والبسمة ..
كانت الحقل وعمري به نبتة تترعرع وتورق وتزهر .. كانت الصبا بعد
الطفولة . كانت التجربة الصغيرة ببراءتها وعفويتها وتلقائيتها وكل شئ
فى هذا العمر ، طفولى برىء التصرف والاحساس .

كانت زميلاتي من القاهرة وضواحيها الأخرى يصرح لهن أهلهن
بالخروج فى نهاية كل أسبوع وكن سعيدات بهذا أما أنا فكنت أخرج على
مسار العام كله ثلاث مرات .. فى العيدين وفى نهاية العام الدراسى .

كانت تتنابني ظهر الخميس من كل أسبوع وحشة فقد كانت الغائبات يتركن فراغا تسكن معه المدرسة فى الخميس والجمعة بعد حركة كخلية النحل .. وكنت أيضا أعبطنهن للتغيير ورؤية الأهل على مسافات قصيرة ولكنى أعود سريعا الى دنيائى الخاصة فاتخذ من الخميس والجمعة فرصة لتنظيم خطوطى فأعيد تنسيق ملابسى وكانت المدرسة تطلب من الأهل أن يزودوا البنات بست وحدات من كل نوع سواء من الملابس الداخلية أو الخارجية .. مما كان يشكل فى عيني زحاما يحتاج الى إعادة تنسيق أو تنسيق دورى .

الداخلية فى حلوان الثانوية :

كان الخميس والجمعة ، مجالا لنوم أطول ولو أن كل شيء فى أى يوم محدد بجرس فى وقت لا يتقدم ولا يتأخر .. الطعام .. اللعب .. إطفاء النور ليلا .. الاستيقاظ من النوم صباحا .. الرجوع الى الفصول بعد الظهر للاستذكار .. ولكن وجبة الافطار فى يوم الجمعة ، كانت تحين بعد موعدها التقليدى بنصف ساعة .. لون من التغيير أو الترفيه على أى حال .

كان الخميس والجمعة مجالا للسماح بسماع الراديو . فأتبع بصوت أم كلثوم وسرعان ما التقط الجميع شغفى بها وولوعى فكن فريقين فريقا يسعدنى بالتنبيه الى بدء غنائها ومواعيده بل مشاركتى فى الاستماع .. وفريقا يدعبنى بمحاولة النقد المفتعل فأنبرى للاشادة بها .. كل هذا وأنا داخلية وقادمة من الريف لم أرها ولم أقابلها .. كم هو حلو منعهم الحب بلا مقابل .. الحب لذاته .. حب الجمال والفكرة والمعنى .

ان تذوق الجمال ، نعيم احساس ونعمة من الله يرزقها السعيد . وكبرت وكبر معى هذا الاحساس حتى أنى كتبت مرة منذ شهور ان الناس يعدون الفنون بأنها فن الأدب ، وفن الموسيقى ، وفن النحت ، وفن الرسم ، وفن التصوير ، وفن التمثيل ينسون فنا هاما هو دعائهم جميعا ذلكم هو فن الرؤية .

هكذا تعيش فى داخلى .. فى أعماقى ، أيامى الباكرة .. أيامى الأولى .

دور الأب :

بدأ تعلقى بصوت أم كلثوم طفلة فى بلدتنا .. حتى كنت أغلق على نفسى باب حجرتى لأخلو إليها .. واذا كان الوقت ليلا أطفئ النور

حتى لا يشغل حواسي شيء عنها . كنت أستعذب الصمت والنطق واللفظ . . لعل سر هذا أو هو السر الحقيقي أنى حفظت القرآن طفلة فعرفت وأحسست ما فى نطقها من صقل وحلاوة أداء . وكان الفضل فى هذا لأبى الذى حرص على تنشئتي نشأة اسلامية وأدبية . . فقد علمنى القراءة . . بل علمنى « الاختيار » فقد كان يقرأ ويسجل فى كراسة ما يستوقفه من معان وأساليب ثم يعطينى الكتاب أو المجلة لأقرأ وحدى . وبعد هذا يسألنى سؤال السميع الصديق ثم يطلعنى على رأيه الذى سبق له تدوينه . .

هذا الاهتمام أذكى حواسي وأشعل حماسى ، وأيقظ طموحى . عرف أبى وهو من رجال الأعمال لا التعليم كيف يشعل ، فى الطفلة ، الشرارة المقدسة .

. . حلوان الثانوية تمثل ست سنوات من عمري فلا تلومولى ان وقفت عندها فى هذه الصفحات طويلا . . انها كما يقول رامى قصة حبي وقصة عقلي بل قصة قلبي أيضا .

فى مدرسة حلوان الثانوية ومنذ البداية اى فى سنة أولى كتبت موضوع الانشاء فاذا بمدرس فصلى يطلع عليه المدرس الأول للغة العربية . . وبعد هذا يقرأ الموضوع فى الفصل وتكرر هذا وسرعان ما ذاع لى صيت فى المدرسة .

مسابقة فى اللغة العربية :

أراد المدرس الأول للغة العربية أن يرسى معنى معيناً هو أن الفنون ومنها فن الأدب ، مواهب تأنى الدراسة فتصقلها وتثريها فاعلن فى المدرسة عن مسابقة فى اللغة العربية عبارة عن موضوع واحد تكتب فيه جميع الفصول من السنة الأولى الى السنة السادسة ويشمل هذا بالطبع فصل التوجيهية التى أطلق عليها فيما بعد الثانوية العامة . وقبل أن تعلن المسابقة وجدت المدرسة كلها طالبات وأساتذة ، الكل يجتمعون أن موضوعى فقط ليس الأول فحسب ولكنه خارج المباراة ولكم يا أعزائى القراء أن تتصوروا السعادة التى يمكن أن تغمر ناشئة فى بداية تعليمها . . بل بلغ الأمر أن طالبات الفصول الكبيرة كن يأتين الى مع أن سنة أولى كانت تتهيب الحديث مع الفصول الكبيرة خاصة سنة رابعة وخامسة وسادسة . ولكن هؤلاء جميعاً كن يأتين الى تطلب احداهن أن أفتح لها الموضوع على حد تعبيرها والأخرى أن أختتم لها الموضوع بعبارة قوية وثالثة أن أكتب سطرين والمعنى مفهوم لقد كتبت فى يوم من أيام تلك

المسابقة ثلاثة وثلاثين موضوعا وبالطبع كان كل موضوع يختلف عن الآخر تحقيقا لرجاء صاحبه وتفاديا للحرص .

وأعلنت المسابقة ومنحني الأستاذ الدرجة النهائية وهذا لا يحدث في مادة الانشاء العربي ثم كتب لي عبارة منقوشة في عقلي ووجداني لا أنسى منها حرفا بعد السنين العديدة التي مرت عليها .

سحر التقدير :

كتب استاذي بالمدرسة لي من الثناء ما لا أستطيع وصف نفسي به ولكنني أذكره هنا من باب القصة . وأهم من هذا من باب تزكية المدرس وتأكيد دوره في حياة الطلاب ومن باب الاعتراف بفضل الذين علموني رحم الله شاعرنا شوقي فقد أصاب وأثاب يوم قال :

أعلمت أشرف أو أجل من الذي

يبني وينشئ أنفسا وعقولا

كتب استاذي في كراستي :

(ستكونين زهرة في روض الأدباء ، وماسة في جبين العلماء ، وينبوعا عذبا من ينابيع البيان ، فسيري قدما الى الأمام) .

ودوت في المدرسة هذه العبارة التي خرجت على كليشيه (أحسنتم) و (أجذتم) .

كان لهذه العبارة دوى امتد أسابيع ، وتوالت بعدها عبارات هذا الأستاذ الذي أدين له حتى كانت الفصول تسعى الى قراءة ما كتب في الموضوع الجديد . وأصبح « تقليدا » . .

انتقلت الى السنة الثانية فكان استاذي الجديد كمن يستلم الشعلة ، يكتب لي أيضا عبارات رنانة بعد كل موضوع .

من أساتذتي من كتب لي عقب موضوع في وصف السوق الخيري الذي افتتحته الملكة : (أقمت من كلامك سوقا للخير) .

وكتب آخر في موضوع شبيهه (عاطفة فياضة بالخير في أسلوب أشهى الى نفسي من تغريد الطير) لولا الحياء من الاسترسال في كتابات الذين باركوني ورشوا على طريقي النور ، كلمات مضيئة وضيفة ، ملأت صفحات وصفحات .

ماذا صنعت بى حلوان الثانوية :

لقد خلقتنى هذه العبارات خلقا .. كانت كل عبارة تبيننى التزمت
أى ألزمت نفسى بالاجادة - لأحتفظ بمستوى يتوج به هذه العبارات
وألزمت نفسى بالقراءة والتعمق رغبة فى التجويد والتجديد وألزمت نفسى
حتى بقواعد الخط العربى لأوفر لموضوعى الشكل بعد المعنى وألزمت
نفسى بمربع من سطرين قبل الموضوع وعنوان أدبى خاص بى ثم عرفت
فيما بعد أن هذا كان طابع أدباء الرومانسية فى القرن التاسع عشر ولكنى
فعلت هذا بتلقائية ووحى الفطرة .

وألزمت نفسى بتكثيف الجهد فى المواد الدراسية الأخرى حتى
لا يخذش أى نقص الهالة التى أحاطنى بها مدرسو اللغة العربية فضلا عن
أنى ذقت حلاوة التفوق والنجاح .

ومن هنا قلت أن عبارات التشجيع خلقتنى خلقا جديدا .. ان
التقدير غذاء لروح الانسان .. ان قيمة الجواهر تعزا الى عين مكتشفها .
مرة أعاد أستاذ لى ورق الامتحان وكانت الدرجة النهائية خمسين .
ولكنه قال لقد جمعت درجات الأسئلة فحصلت نيمات على ٤٨ ولكنى
خجلت من نفسى ألا أضع لها خمسين وهنا اقتضتنى الأمانة أن أضيف
الى كل ورقة فى الفصل درجتين . كم أسرتنى وطوقتني هذه العبارة :
لقد بكيت من فرط التأثير .. لقد كنت اعتدت على الدرجات النهائية حتى
غدوت أتوقعها ولكن هذه القصة لم أتوقعها .. والتفت حولى بعض زميلات
يردن معرفة مكان الخطا واذا بواحدة منهن تجمع الدرجات فتجدها خمسين
وهرعت الى الأستاذ الذى أعاد الجمع واكتشف أنه التبس عليه الجمع وأنى
أستحق الخمسين بدون اضافة ولكن هذا لم يقلل شيئا عندي من جميله ..
من لفتته ذات الدلالة الكبيرة .

وتمر الأيام وينقضى عام دراسى ويهزل عام وكل منها يحمل لى وأحمل
له هناءات جديدة من هذا اللون أى خيوط ملونة فى نسيج القصة قصتى
مع حلوان الثانوية .

وقد توجت هذه القصة بمسابقة الأدب العربى التى كانت تعقد
للمتفوقين فى اللغة العربية من طلبة التوجيهية التى سميت بعد هذا
الثانوية العامة وذلك على مستوى مصر كلها .

لم تعلن ناظرة المدرسة عن هذه المسابقة لسببين فى رأيها :

الاول : أن هذه المسابقة كل عام لم تنجح فيها بنت واحدة .

الثاني : وهو مرتبط بالاول هو صيانة الوقت والكرامة حتى تتفرغ.
الطالبات لامتحان آخر العام : التوجيهية •

وطلبت الى مدرسى اللغة العربية التكنم على موعد المسابقة • ولكن
أحدهم كان يكتنم ضيقه بصعوبة شديدة ظننتها فى أول الأمر ، لشيء يتعلق
به فلما كان اليوم الأخير لانقضاء موعد التقدم لهذه المسابقة ثار وأعلن
أنه ضامن ، اذا دخلت المسابقة أو دخلت المدرسة بى المسابقة ، النجاح
بل الأسبقية بين الناجحين •

وعلمت المخبوء واكتشفت أو تكشف لى المضمير فبكيت بكاء شديدا
بل التحيت وهنا انضم الى المدرس الانسان ، زملاؤه وأساتذتى مدرسو
اللغة العربية بالمدرسة • وضغطوا على الناظرة ضغطا شديدا لم تملك
معه الا أن طلبت الى أن أملا الاستمارة الخاصة وذهبى بنفسها وقدمتها
بعد انتهاء مدة التقدم موضحة ما حدث فقبل المسئولون فى الوزارة
الاستمارة •

وجاء موعد الامتحان التحريرى ثم الشفوى وبالطبع كان أعلى
مستوى ••• أعلى كثيرا من منهج الثانوية العامة •• وظهرت النتيجة فاذا
بالوزارة تهنىء الناظرة والمدرسة لقد كنت الأولى على البنين والبنات لأول
مرة فى تاريخ هذه المسابقة وبكت الناظرة هذه المرة واختلط ثناؤها
باعتذارها عما حدث والذي دفعها اليه خوفها على نتيجة شهادة اتمام
الدراسة الثانوية •

كان يوما مشهودا لم ينقصه الا غياب أبى الذى كان ينتظر هذا
اليوم منذ وضعت قدمى على عتبة المدرسة الثانوية ••

كان وزير المعارف فى ذلك الوقت الدكتور محمد حسين هيكلى
صاحب (فى منزل الوحي) ، (حياة محمد) ودعا الناجحين ليوزع عليهم
الجوائز بالإضافة الى اعلان حقهم فى مجانية الجامعة واختيار أى كلية
يشاءون •

وكننت أول من تقدم الى المنصة وأول من سلم عليه وأهدى الى
مجموعة كتب أدبية لكبار أدباء العصر ومفروفا به « عشرون جنيها » •
وكان هذا المبلغ يمثل شيئا فى الخمسينات أو بالنسبة لمن هم فى مثل
سنى فى ذلك الوقت •

وفند ذلك الحين اتصلت حياتى بل التحمت بالأدب قراءة وكتابة
واستشفافا وتدوقا •

كانت القاهرة :

كنت أقيم في القاهرة أو في ضاحيتها حلوان كالعابد في محرابه للناس دينيهم وله عالمه الخاص .. أثناء العام الدراسي أقيم في حلوان أي ثمانية شهور وكانت الاجازة وهي أربعة أشهر أمضى نصفها على الأقل أقضيها مع جدتي في القاهرة وفي كل مرة أتلى القاهرة كمن يراها لأول مرة .. وكانت القاهرة في مطلع حياتي لا تشبع العين منها كل شيء فيها يرف من الجمال ويشف من النظافة .. كان ركوب الترام متعة .. وركوب الأنوبيس متعة .. كان نهارها مشرقا وليلها متألقا .. كان الناس أعنى أهلنا الطيبين ، لا يحجب سماحتهم زحام أو رغام أو ازهاق أو املاق .. كانوا في نعمة يرددون معها في مجالسهم « دا الى عمل مصر كان في الأصل حلوانى » والحقيقة أنه ليس الى عمل مصر وحده .. كان الانسان المصرى حتى الخمسينات ابن بلد يحب الزينة والمتعة والجمال .. يعيشه ويوفره لنفسه ما استطاع .. حتى القلة فيها نعاغ أخضر حتى ماء الشرب فيه ورد .. فهو ماء ورد أو ماء بالورد .

كان الانسان المصرى قبل أن تكربه المعاناة والضغوط انسانا صافيا يحب العرب والسماح ..

لأنه ابن حضارة طويلة منعمة ومنعمة .

انسان لطيف أنيس كالنبات .

انسان خصيب كواديه ونهره .

انسان ابن طبيعته

والطبيعة المصرية ليس فيها قسوة .. طبيعة لا تعرف الزلازل والبراكين والعواصف .. حتى الصبحاء المصرية فيها وداعة تبدد الوحشة .

الطبيعة المصرية وأهل القاهرة خاصة :

سرى لطف الطبيعة المصرية ورفقها الى الانسان المصرى فكان عذبا ودودا كريما لأنه ابن خير يأتى المصريين غدقا وهم بما عندهم ، يقدقون .

كان الحنو والتراحم في النفس المصرية والانسان المصرى يتبدى في الحديث رقة ، وفي التنمية المصرية تحت الربع وخان الخليل دقة ، وفي الأسطورة المصرية وفاء وعطاء .. فنجد فيها (القرية) التى يسقى منها صاحبها ولا تفرغ كما تحكى لنا جداتنا .

وقد عرف المرحوم قاسم أمين الذوق السليم بأنه الشعاع اللطيف الذي يهوى صاحبه الى أن يقول ما يناسب المقام ، ويتجنب ما لا يناسبه . .
والمصريون خاصة في عصور الرخاء والنعمة يعتقدون أن مصر أم الدنيا
وأم الذوق ولهذا يقولون الذوق ما فأتش باب النصر .

ويروون في هذا قصة طريفة يرويها بدوره الدكتور أحمد أمين . .
تقول القصة أن رجلا كان اسمه « الذوق » كان في منتهى الظرف
والكياسة والدبابة . . كريما رقيق الحس والشعور . . غاضبه يوما بعض
الناس فعزم على الرحلة من مصر : فلما وصل الى « باب الفتوح » مات
هناك وما يزال قبره في هذا المكان الى الآن ويعرف بضريحه « بسيدي
الذوق » .

ومن أجل هذا قالوا : الذوق لم يخرج من مصر .

• كان يموت فيها حيا

• وقدر له أن يموت بها راحلا

• غلاب هواك يا حبيبة

• بأسر القلب والروح معا

• غلاب

كانت القاهرة عائلة متحابه ومع هذا كانت أحياء متميزة وكل حي
يتعصب له أهله من اعتزازهم به واحساسهم بالانتماء اليه ذلك الانتماء
الذي فقدناه للبلد لا للحي .

كانت مصر تزرع الحب في الأرض وتزرع الحب في القلب فتسمع
سائرا أو زائرا أو مسافرا أو مقيما المثل الشعبي (اللقمة الهنية تكفي
ميه) والمثل الشعبي (لاقيني ولا تغديني) .

لا يقول شعب مثل هذين المثلين الا اذا كان يستشعر جو الأسرة
يستنشقه هواء يعيش عليه .

الذوق المصري :

هذا هو الشعب المصري أو هذه هي طبيعة البلد . كما قلت حين
كتبت عن (شخصية مصر) .

— اناء واسع للماء الكل يشرب منه هو : النيس

... ومائدة واحدة الكل يطعم منها هي. : السوادى

وتأصل هذا فينا فقلنا : يانعيش سواء يانموت سوا .

من تعلقنا بالنيل تعلقا شديدا . . ومن تعلقنا بالمركب تعلقا شديدا
قلنا هذا المثل . والركب فى مصر محبة بما تربط بينها وبين النيل .
والمركب لا تتحرك براكب واحد . ان ركايبها جمع يلتقون فى الرحلة
والمصير . وانتقل المثل من المركب الى الحياة ففهموا معنى الوحدة وروح
الفريق .

وتواصلوا وتواصلوا . . وبهذه الصفة فينا استمرت الحضارة المصرية
بغير انقضاء لأن العمل كان أمانة تربط جيلا بجيل وكان مصر أسرة
واحدة ، وان تعددت أسر .

هكذا كانت مصر . . وهكذا كانت القاهرة .

كانت بنت بيثتها . . والبيئة المصرية أصلا بنت الزراعة . .
والزراعة أنبتت فى النفس المصرية من المعاني أضعاف ما أنبتت من
حبوب . وعلى هذه المعاني أرسيت مصر حضارتها . . وطرحها بعد هذا فى
الصناعة والعلم والفن والأدب والدين انما هو فيوض من عالم النبات
وعطاء .

القاهرة مدينة القيمة :

عرضت لبعض الأمثال الشعبية من قبل التى تتردد فى مصر وفى
القاهرة نابعة من بيئة مصر الزراعية مترجمة فلسفتها فى الحياة .
وفلسفتها هذه غير منفصلة وغير مكتوبة لأنها ليست جزئية . ليست
من عمل الذهن وحده بل هى من عمل الانسان الكيان كاملا ومجمعا
بحواسه وعقله وقلبه ودمه وأعصابه على مثال من عالم الزراعة الذى
لا تنفصل فيه البذرة عن الأرض أو عن الساق أو الفرع أو الورق
أو الثمر . الكل متكامل .

فلسفة مصر لهذا ، وبه ، تأتلف من عطايا العقل وهدايا القلب
ومضات الشعور ، ويقظات الضمير .

ان القاهرة أجل وأعظم العواصم ليس من باب زهو الوطنى فانى
أتكلم عنها بمقياس القيمة لا الوسائل الحديثة . . أعرف أن الغرب يرفع
ناطحات السحاب فإذا بالكم فيها وله تأثيره ، لا يحظى بسحر الدقة
الدقيقة فى الترصيع المصرى وحساسية الاتجاه فى الهرم وأبى الهول ،
وأنس العمارة فى معابد امحتب ومساجد مصر الاسلامية بقدر محسوب
لأنه أسلوب حياة طويلة روية بالدين والتقنين والمعنى . . حياة نفذت من

قديم الأزمان بل قبل الأديان وقبل الزمان بزمان .. نفذت الى المجرد من عدل وحق ومعروف وتوجت هذا كله بالنفاذ الى الوحداية فعرفت بهجة الكشف ، وصفاء المنبع ، وخبرة التجريب .

وابن البلد القاهري يحكم حياته الكيف قبل الكم وما أروع وأصدق حين يعبر عن ذروة ادراك القيمة بالتكيف فيقول : أنا أتكيفت . ويقصد بالكيف ، ارتفاعه على الكم .

وهكذا مصر .. وهكذا القاهرة كما وكيفا .

اهل البيت :

كان يوم الجمعة في حياة جدتي ، لأهل البيت . وكانت تصحبني معها لأنال من بركتهم . كنت طفلة أقفز الى جانبها ولكني عرفت معنى هذه الزيارات عندما تفتح عمري فعمرت روحي بذكرهم وقرأت تاريخهم وصار التردد عليهم عادة لي وإن كانت على مسافات بعيدة في الزمان وليس كل أسبوع كما كانت تفعل جدتي . أزور اليوم السيدة زينب رضي الله عنها . والبسطاء الطيبون من حولي يبشون آلامهم في ساحتها .. ولكني أقف أمام ضريحها فأتذكر موقفها الشامخ من يزيد بن معاوية الذي تعمد أن ينكا جراحها ولم تكن قد يرثت ، بعد ، من الجراح وأرى كيف أدخل عليها رأس الحسين قتيلا يحيا في القلوب وتحيا باسمه دول وملوك فتتقدم تحمل الرأس تاركة المجلس بعاره وهي تحتوى الشهيد بفخاره قاصدة مصر حيث يخرج واليها والناس معه الى حدود الشرقية لاستقبالها وانزالها أكرم منزل . لقد نزل الوالي كما ذكرت على ارادة أهل مصر ونزل للسيدة زينب عن بيتسه مستجيبا لرغبتهم لتحل فيه وتحل البركة معها في مدينتنا كلها ..

وهو ضريحها الآن بعد أن غدا بوفاتها مسجدا ومشهدا بما تمثل في التاريخ العربي بل في التاريخ الاسلامي بل في التاريخ الانساني أكرم ما في المرأة من معاني الوفاء والاباء . ما من مرة زرت السيدة زينب الا تذكرت قصتها كاملة في هذه المحنة التي لحقت آل البيت .. تذكرت هبتها وقد هجم زبانية « يزيد » على آخر من بقى من بيتها في موقعة كربلاء على « زين العابدين » فانكفأت على الطفل صارخة في وجوههم اقتلونني أنا أولا وما قتلوها ولكن قتلوا أنفسهم بما اقترفوه ويكبر زين العابدين ويلتف الناس حوله اذ يحج البيت في عهد هشام بن عبد الملك ويرى هذا الخليفة الذي لم يغن عنه ماله أو سلطانه فيتساءل في تجاهل العارف : من هذا ؟ وينبرى له الشاعر الفرزدق :

هذا الذى تعرف البطحاء وطاته والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى النقى الطاهر العلم
وليس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجم
إذا رأته قریش قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهى الكرم

وتضم القاهرة الامام زين العابدين كما تضم الصفوة من أهل بيته
وليس فيهم الا صفى نقى طاهر علم ٠٠ ويحج المسلمون من أنحاء العالم
الاسلامى الى مكة ويوفضون الى المدينة حيث مثنوى الأعظم العطرات ،
ويسعون الى القاهرة حيث آل البيت يضيفون اليها ويضيفون عليها وتعرف
هى أقدارهم وتحفظ تراثهم وتعلی دينهم وتحمل علمهم ٠٠ والفضل يعرفه
ذووه .. والقاهرة مدينة الفضل والعلم والتاريخ والقيمة .. مدينة الأزهر
الذى يضم ٣٦ رواقا تحمل أسماء البلاد الاسلامية ويتلقى أبناؤهم العلم
ويلقى غريبتهم المأوى والملاذ ٠

انى سيده لم أتعلم بالطبع فى الأزهر ولكنه يعيش داخل بالروية
والسمع والقراءة والتأمل والاستشفاف وحين أتحدث عن حياتى فى
القاهرة فان أحد خيوط نسيجى حى الأزهر الذى طالما ترددت عليه والجامع
الأزهر الذى طالما تطلعت - اليه عمارة وحضارة ٠٠٠ مسجدا ومعلما من
معالم القاهرة ٠ انها قصة عريضة تحضرنى الآن ٠

تتزامن الذكريات وكان حياتى فى القاهرة حيوات كثيرة ٠ ولكن
هل هى قصتى وحدى مع القاهرة ٠٠٠ كلنا رواة هذه القصة وأصحابها ٠
ان القاهرة لها فى كل قلب مكان ليس لغيرها مهما طوف المصرى وطاف
ورأى بعد طول المطاف ٠٠ انها القاهرة ٠

خان الخليل

بصحبة جدتى أيضا ترددت على أحياء القاهرة القديمة التى كانت
ترتاح اليها للزيارة أو البركة أو الشراء ٠ وعرفت صغيرة خان الخليل ٠
هناك فى خان الخليل حيث الصوانى الصفر المستديرة المنمنمة
المحيط يرفعها على كفه ، كالحاوى ، عامل من عمال المقاهى البلدية ومنهم
المئات الذى يضع الطاقة البيضاء المخرمة فى وضع مائل على رأسه
تحسبها واقعة لا محالة ولكنها تظل ثابتة (صنعة) ٠٠ ويمشى كالأوزة
كأنه يدور مع كورنيش الاسكندرية والطريق مستقيمة أو كأنه دراجة
تسير بغير سائق ، وقد تصطك به دون أن تسقط من كفه الصينية بما
حملت أو حتى يضيع من الشاى رشقة (مرة أخرى أقول (صنعة) ٠

هناك حيث يخب أولاد البلد فى القفاطين (الشاهى) التى يتهافت
هلى قماشها السياح ومن فى طريقهم الى أوربا فان الحسان هناك يتهافتن
بدورهن على ارتدائها فى السهرات •

هناك حيث تنصاع الفضة لليد الصناع فتشكلها أقراطا وعقودا
تستهوى الكثيرات والسائحات خاصة فيسرفن فى اقتنائها •• هناك
تستطيع الآن أن تعثر على البقية من مهرة الصناع فى التكتيف
والتطعيم •• انهم خبراء هذا الفن الذى دالت دولته وأصبح يقصد الآن
للترف أو - الاطراف وغالبا ما يكون هواة الطراز العربى « غربيين » •
هناك حيث تتخلق ندوات الذكر ينتظمها رجال أطلق معظمهم لحاهم
وأسبلوا جفونهم يميلون بجذوعهم يمنة ويسرة فى حركة تقليدية يذكرون
ويوحدون فإذا علا المنشد فى انشاده اشتدت حماسهم حتى ليطرد
ترديدهم مع صوت جهدهم المبذول •

وفى خان الحليل وما حوله (جماعية) فالصناع • يتناثرون فى
تجمعات متناسقة والذاكرون ينتظمون فى حلقات ، والباعة المتجولون
يتجمع حولهم الناس ، والحديث على طريقة العصافير الكل يقول ولا من
أحد يسمع • ولعل أكثر الجميع فضولا ، النساء فهن يشتركن فى كل شيء
بالتعليق اذا كن سارحات ، أو النظر اذا كن خاليات ، أو •• المناكفة اذا
كن شاريات ، أو المجاورة اذا كن راضيات •• ففى حلقات الذكر يجدن
بالزغاريد •• والعليمات منهن بأصول هذا الفن يتبرعن به عن طيب خاطر
دون سؤال يكفى أن يمر بهن جهاز عروس فى موكب من العربات الكارو ،
وان كانت تغنى فيه عربة واحدة ، ولكنه التباهى المتأصل فينا أو لعله
الرفق بالحيوان •• يكفى أن يمر جهاز عروس لتدوى الزغاريد حتى ولو
لم تعرفها المزغردات فاذا كان المار موكب العروس بلغ الجود أقصاه فترتفع
الزغاريد متواصلة ومتداخلة مقتضبة أحيانا أو مسهبة مسترسلة وهذا
يرجع الى طاقة الصوت وصاحبه أو لعلها مسألة حظ •• بين العرائس •

هناك ترى أو تسمع عن الدراويش فى ثيابهم الفضفاضة ولحاهم
المسترسلة وعمايمهم المتكورة وأردائهم الواسعة وقد لف الواحد منهم
حزاما زاهيا على وسطه قد تمرد عليه منتصفا ثوبه كأنه يبط شفثيه
فيغذو الرجل له (عب) كالذى نراه فى الحقول عند جمع القطن •

وفى المدرسة تعلمت أن الطريق المستقيمة كناية عن الهداية
والرشاد ، والطريق الملتوية كناية عن الغواية والفساد • ولعلمهم استشهدوا
قوله تعالى « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط
مستقيم » •

والطريق تستعمل حيناً بمعنى الوسيلة ، وأنا تؤدي معنى الكماح
حين يلازمها الفعل (شق) وتارة يعنى « الأسلوب » فترسم الطريق انما
هو احتذاء ٠٠

وغير هذا من المجازات والكنايات والاستعارات ٠٠

طريق ٠٠ وطريق ٠٠ ألوان وأنماط ٠٠ مراتب وحظوظ وأقدار ٠٠
كانت الأجازة المدرسية أربعة أشهر نصفها كنت أقضيها في القاهرة
كما أسلفت وتحرص جدتي على امتاعى بجديد كل يوم وفي مقدمة هذا
الزيارات والشراء والاحتفالات القاهرية بوفاء النيل وسفر المحمل ورؤية
رمضان ٠

وقبل أن تسرقني الذكريات أقف عند الإمام الشافعي رضي الله عنه ٠

كم مرة زرت فيها الشافعي ٠٠٠ وأرى الكبار يقرأون الفاتحة ترحماً
عليه فأقرأها بصوت مرتفع لأثبت وجودي ٠٠٠ وما أكاد أفرغ منها حتى
أجوب الضريح ويبهرني تابوته دون أن أعرف تفسيره وتصعد نظراتي الى
المركب أو الزورق الدقيق فوق قبته وعندما كبرت وأعطيت نفسي لدراسة
شخصية مصر عمقت نظرتي الى هذا الزورق الذي كنت الهو بالنظر اليه
طفلة ٠٠٠ أصبحت أرى فيه الخط الحريري الذي يربط الفن المصري على
مسار العصور ٠٠٠ ان اليد البناة هي هي ولهذا غدا لها طابعا ينعكس
على انجازاتها في مصر الاسلامية كمصر القديمة سواء بسواء ٠٠ ان البناء
المصري الذي رفع هذا الزورق الدقيق فوق قبة الإمام الشافعي يلحم زورق
أمون في طيبة وزورق الحجاج بعده في الأقصر وهو الاسم الحالي لطيبة
القديمة ٠ أسلوب مصر هو هو على مر العصور وان اختلفت أديان ونظم
وأحكام ٠

وأقرأ فيما أقرأ قول الأستاذ حسن عبد الوهاب في كتابه (من
روائع العمارة الاسلامية في القاهرة) ان الدولة الفاطمية (أحضرت معها
في مستهل حكمها بالقاهرة بعض أساليب العمارة التونسية ، ولم تلبث
طويلاً حتى تخلصت من تلك المؤثرات وأصبحت لها طابع قاهري بحث
في جميع تفاصيلها) ٠

وكان قريب جدتي شيخ مشايخ القراء ٠ وكان عالماً متبحراً في
علوم الدين ٠٠٠ ولما كانت جدتي تريد أن تجمع لي الدنيا بعلومها
وطيبتها معا فقد طلبت الى قريبها طيب الله ثراه أن يفهني في علوم
الدين وأن يعلمني القراءات وأن يستمع الى حفظي للقرآن الكريم وهنا ،
لي مع العالم الجليل جلسات خصبة ٠

[والضحي والليل اذا سجي]

هذه الآية بالتنعيم غرست في وجداني الاحساس الموسيقي طفلة ..
وبالدماثة غرست في نفسي معاني السلوك .

[ولسوف يعطيك ربك فترضى]

هذه الآية عاشت معي طفلة بما تفتح من آفاق الأمل والطمأنينة .
وانتقلت معي الى بيتي عندما تزوجت تتصدر في اطارها ، حجرتي
الخاصة .

عطاء الله عندي ، كثير .. لا أقصد المال ولكن طمأنينة النفس ،
والضمير ، ومحبة الناس ، والسطور التي أكتبها ... وبعض هذه
العطايا كثير غامر لا يترجمه شيء كهذه الآية التي أعترز بها .

[اقرأ باسم ربك الذي خلق]

عرفت من هذه الآية أن القراءة ليست نطق الحروف بل من القراءة ،
سياحة في الكون والنفس ومعاني الأشياء ... هذه الآية في رأيي ورؤيتي
مفتاح كبير من مفاتيح الحضارة الاسلامية . ثم تأتي الآية :

[ن والقلم وما يسطرون]

ان الكتابة عطاء نفس وحكمة روح ، وكرامة وموهبة ، والتقهاء
فن وفكر هو لون من العلاقات الفاضلة .

آيات الطبيعة بجمالها وألوانها وجرسها اللفظي ... الآيات التي
لا نعلمها في المدارس ونركز مع الأطفال على آية [القارعة ما القارعة] وقد
قصد بها غيرهم ممن ليسوا في براءتهم أعزائنا الصغار .
آيات الشورى والحرية وكرامة الانسان الذي احترم عقله وارادته
حين هداه النجدين .

آيات مصر والنيل في القرآن الكريم وهذه الآيات بالذات أوسمة
على صدرى ، مصرية . فلم يرد نهر في سياق الفخر ، غير النيل .

ولم يطلق على نهر لفظة الجمع « الأنهار » غيره

ولم يطلق على نهر اسم « البحر » غيره

ولم يذكر بلد في هذا العدد من الآيات كما ذكرت مصر التي
وصفها الله بأنها جنات وزروع ومقام كريم ونعمة وحلم الأنبياء
وقبله الرسالات وبيتها الحضارية .

اسلوب القاهرة :

تحدثت عن القاهرة عن أسلوب حياتها اليومية • الآن أنحدث عن أسلوبها اللفظي والحقيقة أنهما ينبعان من أصل واحد هو إيمانها بالدين والقيم والأسرية •

شعور الشعب المصرى بالأسرية تنبع منه ألفاظه كما تنبع منه أخلاقياته وتصرفاته ونظراته فى الحياة والناس ، وينعكس هذا على آدابه وفنونه •

ويتجلى هذا فى أحياء القاهرة الشعبية التى يتميز كل منها بحرفة معينة يبلغ من تجويده لها وإخلاصه فيها ، واعتزازه بها ، أن ينتمى إليها فيقال حى النحاسين ، وحى الصاغة ، وحى المغربلين الخ • انه لون من الأسرية يقتصر ويعم وهو فى الحالين طابع أمة •

فى أحياء القاهرة هذه اذا عمل القاهري سمي أستاذًا لصنعتة (معلمًا) والصبى يناديه (يا عمى) • ان العمل قرابة ونسب ... كل شئ فى مصر ، أسرة • والأب المصرى القديم يقول لابنه الذى يحمل الكتاب (حافظ عليه كأملك) فى ادراك عال نبيل للألم والكتاب معا •

واللغة الشعبية تسمى الرحم : بيت الولد فى احساس موروث براحة البيت ودفته وحنانه •

ان الأسرة بمفهومها المصرى العريق ، بؤرة حضارية يتشرب المرء فيها شعورا قويا ومقوما •• رحيمًا ومنعما •

يستشعر الطمأنينة والسكينة والوفاق ، اذ يشهد تجربة مثمرة أبوين متفاهمين •

وفى مثل هذه الأسرة يولد الشعور بالالتزام نحو المجتمع الأم •

ان قمة التأدب ، قولنا فى المجاملة « مفيش فرق » والذم عندنا القول (أبو وشين) أى لا التزام عنده • عرفت هذا صغيرة ، من نشأتى الباكرة فى رحاب القاهرة الحبيبة • ولكن الآن ماذا أرى ؟ لحقت المجتمع القاهري حمى العصر اللاهث الآلى فتغيرت الصورة الجميلة فمق تعود القاهرة الأصلية النبيلة الى تقاليدها الانسانية الوارفة الظل •

السلطان الحقيقى :

تحدثت عن احياء القاهرة وتقاليدها وحرفها وكيف ان الواحد من

هؤلاء - اليدويين (معلم) ولعلميته أصول وتقاليده ، وله احترام خاص
وسمته معين ، وحين فتح سليم الأول مصر جمع هؤلاء المهرة والفنانين
وحملهم معه الى القسطنطينية . ودلالة هذا بمر الغالب بفن مصر بهرا
يسيل لعبه حتى ليعجز عن مقاومته . ولم يؤثر عن سليم أنه أخذ
فنانين وصناعا من مكان الى آخر في الشرق كله .

ويعجب الناس كيف احتمل الشعب المصرى غزاته بعد عصور
زهو الحضارى الذى استمر ألف سنين . وينذهب المحللون فى تحليل
هذا مذاهب شتى . ولكنى مصرية بنت هذا الشعب تجرى فى عروقى
دماءه ، أقول ان استمرار مصر فى صناعة الحضارة كان فيه رضى لنفسها
فأخلق والابتداع والتفنن هواها وهوايتها منذ القدم . أما الحكم فلم يكن
يهمها منه الا العدل فيها والتعفف عن أموالها أو عدم الجشع والسطو .
كان الحاكم من هؤلاء الغزاة أو الطغاة مهما بلغ وظيفته ادارية لا فن فيها
حتى لتسميها فى سخرية لاتخفى : (الضبط والربط) .

من أجل هذا كله زهد المصريون فى الحكم واعتزوا بالسلطات
الحقيقية السلطة الروحية والسلطة الأدبية والفنية .

ان السلطان الحقيقى فى عين مصر هو الفنان الذى لاسلطان لأحد
عليه ولو كان من أهل الحرف .

كانت مصر كما تعلمت هذا فى المدرسة وقرائه فى التاريخ بعيدا
عن حساب النجاح والدرجات ، تدفع ثمن الممالك من مالها ثم تنظر اليهم
وهم يعتلون الكرسى . دون أن تعير هذا الذى يحدث وأصحابه التفاتا .
حين تلتف حول رجل الدين المعتز بنفسه ، العزيز بإيدائه ، وتسميه
(سلطان العارفين) . هذا هو السلطان الحقيقى فى عين مصر .
فعلت هذا مع (ابن الفارض) سلطان العاشقين ، وفعلته مع الحسين
أبى على وهو السلطان أبو العلا (سلطان العارفين) صاحب المسجد
المعروف فى بولاق .

ان السلطة للمعرفة فى تقدير مصر .

ان الشعب المصرى يعرف انه على مسار تاريخه كله هو الحاكم
الحقيقى من خلال علمائه وعطاءه . من خلال سخطه ورضاه
على السواء .

الامام الليثي :

تحدثت عن أولياء الله في القاهرة • وذكرت منهم ابن الفارض سلطان العاشقين والسلطان « أبو العلا » سلطان العارفين • وما دمنا بصدد موقف الرجال في هذا الشعب ، أذكر رجلنا الليث بن سعد الذي تعرفه القاهرة باسم الامام الليثي ويتعلق أهلها بزيارته ويقسمون في ايمانهم (بالامامين) يقصدون الامام الليثي والامام الشافعي •

الامام الليثي عرض عليه حكم مصر فرفض كما رفض القضاء ولكن السلطان والقاضي كان كل منهما يغشى في فوائده وحوائجه مجلس الليث ، التماسا للرأى أو التأييد فان استحقه جاد عليه به امام مصر وفقهها • وإذا أنكر رجلنا الليث من السلطان أو القاضي أمرا كتب الى الخليفة فما يلبث أن يأتى ، الحاكم ، العزل •

وكم طافت بى جدتى مشهد الامام الشافعي والامام الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة وسائر أهل البيت • وتدعو لى فى حضرتهم التماسا للبركة وكانت أمنية الأمنيات عندها عندما كنت طفلة أن ترانى أفك الخط فلما تجاوزت الطفولة ودخلت فى مراحل الصبا كانت أمنيتها أن أقرأ (الجرنال) أى الصحيفة وقد عاشت حتى رأتنى أكتب فى الصحف وأؤلف الكتب فاذا بها الدنيسا لا تسع فرحتها وإذا بها أيضا تعزو هذا كله الى بركة أهل البيت الذين ربنتى فى رحابهم فى زيارتها السنوية لهم •

ويستقر هذا كله فى أعماقى ويوجه قراءتى دون أن أدري فى البداية ثم بوعى كامل منى بعد أن شبيب عن الطوق فدخل فى نسيج شخصيتى كل ما هو مصرى الانسان والأثر • حتى حبات الرمل فى الصحراء • حتى ذرات التراب وأوراق الشجر • عاش فى داخل المكان والزمان والناس والأحداث • طلب منى ، جندى ، يوما ، بطاقتى فى طريق الهرم فى أعقاب حرب سنة ١٩٦٧ • كانت عنده تعليمات ينفذها حرفيا بدون تصرف • ونسيت أنه عبد المأمور كما يقول أهلنا فى القاهرة والريف على السواء ورفضت طلبه • كبر على نفسى أن يمتحن حبى للقاهرة • قلت له وكيانى يختلج من الألم • هل يخفى عليك أن الواقفة أمامك مصرية ؟ تطلب بطاقتى وهذا التراب كحل لعينى ؟

وتركنى الرجل أسير • لماذا تذكرت سنة ١٩٦٧ • لا كانت سنة ١٩٦٧ • لقد جرحت الهزيمة حتى البسمات وسنابل القمح ، ورقة

الياسمين ٠٠ جرحت السنين في شيخوخة الآباء ، وجرحت نضارة
الطفولة في الأبناء ٠٠ جرحت السرور في القلب والكبرياء ٠٠ جرحت
الثقة والقدرة والاباء ٠٠ الى حين ٠٠ جرحت الليالي ٠٠ ليالي القاهرة
فلم تعد عذبه ولم تعد فاتنة ساحرة ٠٠ وبكى الفجر في الحقول حتى
بلل الصبر ٠٠ وتشابهت الأيام فلم يدر بها العمر ٠٠

ومع هذا لم تعرف مصر ولم يعرف تاريخها حائط المبكى ٠٠ كانت
مصر في الأعوام الستة تلمم جراحها وتجمع نفسها ، وتستوعب
خصائصها في عملية تحضير للعب الدور الجديد الذي بدأ بالعبور ٠٠
قد تشقى مصر ولكن تشفى ٠

قد تمرض ولكن لاتموت ٠

كان قريب جدتي عالما متبحرا في علوم الدين وذكرت كيف كانت
جدتي تريد أن تجمع لي الدنيا بعلومها وطبياتها فطلبت لي قريبها طيب
الله ثراه أن يفقهني في علوم الدين وأن يعلمني القراءات وأن يستمع لي
حفظي للقرآن الكريم ٠

سمعت من الشيخ حنفي ابراهيم قرينا العالم الجليل أن
الشافعي كان له مريد اسمه ٠٠ الربيع بن سليمان ٠ وكان الشافعي
كلما ارتج عليه شيء يقول للربيع بن سليمان يا ربيع ادع لي سرجا ٠ يريد
« سرج الغول » وهو رجل من أهل مصر عالم باللغة ولا يقول أحد
شيئا من الشعر الا عرضه عليه ، فيأتى به ، فيذاكره وينظره ثم يقوم
سرج الغول فيقول الشافعي : يا ربيع نحتاج أن نستأنف طلب العلم ٠٠
كما كان الشافعي يقول عن فقيه مصر قبله ، الليث بن سعد : (الليث
أفقه من مالك غير أن أصحابه ضيعوه) (١) ٠ ومن أخطائنا ننسى في
اندفاع البهر بالغريب ، أفذاذا بيننا من حقهم الحفاظ والتكريم ٠

عاش الشافعي في مصر وآنس اليها واطمان بها واطمان لها فحين
كيفت مصر آراءه وحورت وبدلت فيها لم يتردد في كتابة رسالته من
جديد نزولا على رأى مصر وعدولا عن رسالته القديمة التي كتبها بالعراق
متأثرا في رسالته الجديدة بالبيئة المصرية وبما خالط وسمع تلاميذ
الليث بن سعد ينقلون عنه آراءه وفقهه ٠

ومثل هذا فعله بمذهبه ٠ ففي مصر كتب مذهبه الجديد وما أوسع
الفرق وأبعد الفارق بينه وبين مذهبه القديم الذي كتبه بالعراق ٠ وكتابه

(١) قد يكون المصود بلفظة (ضيعوه) أى لم يدونوا تراثه ٠

« الأم » به شواهد كثيرة على تأثره بالبيئة المصرية كحديثه في القراطيس وشهادة الشعراء وصيغ الوقف .

لم تنته بعد قصة الامام الشافعى كما وعيتها مما علمتنى القاهرة أصبحت كتب الشافعى هي الكتب المصرية وحدها وربما دل على أنها كانت هي المعتمدة منذ النصف الأول للقرن الثالث ، قول أحمد بن حنبل لفتاه اذ قدم الى بغداد من مصر : هل كتبت كتب الشافعى ؟ قال لا .

قال ابن حنبل : فرطت . فرجع الى مصر فنسخ الكتب .

ولقد روى أن ابن حنبل قال (عليك بالكتب التى وضعها بمصر) فانه كما يقول الأستاذ عبد الحلیم الجندى (وضع هذه الكتب بالعراق ولم يحكمها ، ثم رجع الى مصر فأحكم تلك) .

وكان الشافعى نفسه يقول فيما يروى البعض عنه (لا أجعل فى حل من روى عنى كتابى البغدادى) وفى هذا ما فيه من اعتماده كتابه المصرى واعتماده به وحده .

لقد كان الشافعى تلميذا لمالك . يهاجم فى العراق مدرسة الرأى أى مذهب أبى حنيفة فما ان جاء مصر وتأثر بالحياة المصرية حتى مال عن مالك وكون مذهبه الجديد .

على أن مصر لها قصة مع ابن مالك شبيهة . فقد أبت أن تقبل الروايات كما هى فى الموطأ بل كان عبد الله بن وهب يدقق فى اختيار الأحاديث وهذا المصرى كثيرا ما كان ابن مالك يفتى بأرائه فاذا قال مالك (حدثنى من أرضى) فائما هو عبد الله بن وهب .

وكم لمصر من قصص مع المالكيين . ان الفقيه المالكى عبد الوهاب ابن على الذى وصفه صاحب تاريخ بغداد أنه لم ير فى المالكية أفقه منه ضاقت حاله فى بغداد فتطلع الى مصر الملاذ . واذا أكرمه المصريون و « عاش » بقى فى مصر فلما حضرته الوفاة سنة ٤٢٢ هـ كان يقول : (لا اله الا الله عندما عشنا متنا) .

وأزور الامام الحسين وأتطلع الى حديث سيرته وأعرف أطرافا منها بالقراءة والحديث حتى أكاد أتمثله فى كربلاء بل أتمثله فى طريقه اليها حين سأل قادما منها عن أهلها ومدى مناصرتهم له واستعدادهم للذود منه فقال :

قلوب الناس معك وسيوفهم عليك •

ترى لو كان فى مصر هل كان علاه سيف أو لحقه حيف ؟

سؤال ٠٠

الأزهر الشريف :

أفضى بنا الحديث الى حرم الأزهر الشريف وهو علم من معالم القاهرة الكبرى •• وإذا ذكر الأزهر ، ذكرت الفاظ بعينها تتردد على السمع كلما أزهى اسمه •• منها (الرواق •• المجاورين الاجازة) •

وقد ذكرت أن بالأزهر ٣٦ رواقا يؤمها المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها يتدارسون فيها علوم الدين وشعائره • وقد أخذت بهذا جامعات أوروبا فى العصور الوسطى وهو نواة التخصص الذى يسير عليه العصر الحديث •

ومن أهم الأروقة بالأزهر : رواق الصعايدة وهو أهم أروقة المالكية . وكان أكابر الأزهر يتخذون مجلسهم بجوار هذا الرواق حيث يتشاورون فى المهمات كما يقول على مبارك فى الخطط الترفيقية •• وبجوار هذا الرواق ، وحبا خيه وفى أهله من الصعايدة وشيوخهم الشيخ العدوى ، بنى عبد الرحمن كتحدا مدفنا له •

ومن أروقة الأزهر ، رواق الحرمين مكة والمدينة ورواق الشام ، رواق الجاويين ، وغيرهم من أهل جزر الهند الشرقية – رواق المغاربة لأهل شمال افريقية وهو رواق كبير وهام •

والتقسيم الى أروقة يتبع تارة الجنسيات ويتبع تارة أخرى التقسيم المذهبى •

وأعظم دلالة على مكانة القاهرة مدينة الأزهر ، وأزهر القاهرة فى العالم الاسلامى وعلو مقامه فى الشعوب الاسلامية ، هو (ثبت أسماء الذين يؤمونه من أقطار خارج مصر تمتد من أواسط افريقية الى روسيا ، ومن أقاصى الهند الى مراکش) كما تقول دائرة المعارف الاسلامية •

وكلمة (المجاورين) نسبية الى سكنى طلاب الأزهر بجواره • ويقول على باشا مبارك فى خطته ، ان الأزهر كان به ١٠٧٨٠ مجاورا . منهم ٣٦٥١ شافعيًا و ٣٨٢٦ مالكيًا و ١٢٧٨ حنفيًا و ٢٥ حنبليًا •• وقد تضاعفت هذه الاعداد فى القرن العشرين •

وكننت أسمع من قريب جدتى أن المدرسين فى الأزهر يسمون أنفسهم (خدمة العلم) .

وفى الأزهر يحترم الطالب استاذة ويبجله تبجيلا فقد كان للأساتذة العلماء على (المجاورين) أى الطلاب ، سلطان كسلطان الوالد على ولده . فالطلاب يقبلون ايدى شيوخهم بل يحملون نعالهم ويؤدون لهم مختلف الخدمات . . وهم ينادون شيوخهم بكلمة (استاذ) أو مولانا .

وفى مصر القديمة كان التلميذ ينادى المعلم : « سيدى » .
عند الأزهر الشريف أقول : ما من مصرى بعامة أو قاهرى بخاصة أو مسلم فى سائر العالم الاسلامى الا وللأزهر فى نفسه مكان مميز ما هو لجامعة مدنية أو دينية غيره ذلك ان الأزهر من العالم الاسلامى واسطه العقد فهو يؤمه وضعا ويتوسطه موضعا يقوم على أرض الحضارات والعلوم والفنون منذ القدم مما يمهده بالبقاء والاصالة والاقتدار . . وهو لا يبعد عن الحجاز مهبط الوحى ومهد الرسالة وموطن الرسول .

وهو فى الشمال من افريقيا

وفى الغرب من آسيا

وفى الجنوب من أوروبا

وكلها تسعى اليه وتلتقى عنده بما لا يحدث على هذا الوجه الأعم فى غيره وان تعددت جامعات فى العالم الاسلامى .

ولعل نظام الأروقة الذى يسود به خير شاهد على هذا . انه جامع وجامعة رسالة وثقافة . . وأحسن بهذا الحكم والمحكومون على السواء فكان الأولون يضيفون اليه فى البناء ، والآخرون يركنون اليه فى الشدائد . . حتى حين حاول الأيوبيون الغض منه أو الاعراض بالعناية عنه ، مالبت أن ذاع صيته من جديد بعد انقضاء عهدهم .

راحوا وبقي الأزهر كعبة للعلم ، ومحرابا للدين ، وحارسا للحضارة ، حين داهمت الحضارة غزوات المغول فى الشرق ، وانقضاء الغرب فى أسبانيا .

وحين تهدد مجد الاسلام هنا ، وتبدد حكم الاسلام هناك ، لاذ الدين ومن ورائه اللغة العربية ، بالأزهر فى مصر حيث كانت من خلاله تشع العلم وتجرى الرزق .

قام الأزهر مقام مدارس بغداد في المشرق ، ومدارس قرطبه في المغرب ثم انفرد بامانة العلم في بلاد الاسلام .

انه اول عمل معمارى فاطمى صاحب مولد القاهرة المعزية وبقي معها حتى اليوم .

وتختلف الروايات والتفسيرات في اسمه كاسم القاهرة . هل هو نسبه الى فاطمة الزهراء بنت الرسول عليه السلام التى اتسبت اليها دولة الفاطميين قاطبة ؟ ويعزز هذا الرأى المقصورة التى أقيمت فى هذا الجامع وسميت باسمها . أم أزهر نسبه الى القصور الزاهرة التى أحاطت به عندما بنيت القاهرة ؟

أم الأزهر تيمنا بما سيصير اليه وما ينتظر العلم والدين على يديه من ازهار وازدهار ومكانة ؟ أم الأزهر ، ردا على مدينة الأمويين بالأندلس . الزهراء . التى سبقت مولده بأربعة وثلاثين عاما (٣٢٥ هـ) تلك المدينة التى أشار اليها ، وأشاد بها شاعر الأندلس ابن زيدون فى رسالته الى ولادة .

انى ذكرتك بالزهراء مشتاقا والأفق طلق ووجه الماء قد راقا وللنسيم اعتلال فى أصائله كأنما رق لى فاعتل اشفاقا تفترق التفسيرات أو تلتقى فان جامعا الأكبر بها أو بدونها . أزهر . ومنارة للعلم والدين منذ جلجلت فوق سامقات مآذنه : كلمة الله أكبر .

انه الأزهر ذو التقاليد العريقة الراسخة . انه الأزهر الذى كانت (أجازته) شهادة لها قيمتها . شهادة حقيقية صعبة المنال فلم تكن تمنح الا للقادري على الفهم والاضطلاع بمسئولية التدريس .

كان أستاذ الأزهر يرتفع بنفسه ويرتفع بعلمه على التبعية لاي سعى بل يسعى اليه . يقول على باشا مبارك ان الشيخ البيجورى كان (عباس باشا فى جلوسه على تخت مصر يزوره فى درسه بالأزهر فلا يقوم له بل يوضع كرسى من جريد يجلس عليه خارج الدرس هنيهة ثم يخرج) .

ونستطيع أن نقارن هذه الصورة بنقيضها لنعرف الفرق الجسيم . من اعتداد الشيخ العالم بكرامة العلم وحرمة الأزهر ، اعتد بنفسه وأحترم رسالته الدينية والعلمية . ولو تصاغر لصغر فى عين عباس . وويل للأمة التى تسقط فيها هيبة العلم والعلماء فيسود الجهل والجهلاء .

كان أستاذة الأزهر رجالا وكانوا قيمة وكانوا قمة .

من رجال الأزهر رفاعة الطهطاوى وسعد زغلول وعلى مبارك
والشيخ محمد عبده والشيخ المراغى والشيخ مصطفى عبد الرازق
والشيخ شلتوت والشيخ عبد الحليم محمود .

ان النهضة الحديثة تدين للأزهر بروادها كتابا وأدياء ومفكرين
وعلماء حتى أولئك الذين انسلخوا منه فى فوعة الشبابة ، وثورة
الطموح أمثال الدكتور طه حسين وصاحب الرسالة الأستاذ أحمد حسن
الزيات والأستاذ الزياتى ، لم ينسوا الأزهر فى حياتهم أو فى كتاباتهم
أيامهم به وآمالهم فيه .

حين ترجم الأستاذ الدكتور أحمد أمين لحياته وقف وقفة طويلة
عند الأزهر .

بل ان الذين تخرجوا من القضاء الشرعى انما يمتدون بجذورهم
العلمية الى الأزهر فقد كانت تجهيزية الأزهر ، وسيلتهم الى مدرسة
القضاء وأحد هؤلاء الاعلام الأستاذ أمين الخولى .

وفى الأزهر تحلقت حول جمال الدين الأفغانى ، الندوة . . والى
الأزهر شراب الملوك والسلطين والأباطرة يجسون نبض شعوبهم على
وقع كلمات الاصلاح تنادى بها السلطة الحقيقية وهى السلطة الروحية
ممثلة فى علماء الأزهر ورجال الفكر والعلم حتى لقد طلب الشاه وساطة
سلطان تركيا عند جمال الدين الأفغانى أن يوقف الحملة عليه فقال
العالم فى عزة المؤمنين الذين قرئهم الله برسوله فى الآية : « والله العزة
ولرسوله وللمؤمنين » قال الأفغانى رادا على رسالة سلطان تركيا :
(قد عفوت عن شاه العجم) .

وكم للأزهر ورجاله من مواقف فى حياة العالم الاسلامى .
وكم للأزهر ورجاله من منازل فى قلوب المسلمين .

الأزهر ليس فقط معلم القاهرة بل انه معلم من معالم العالم
الاسلامى . . انه ألف سنة من تاريخنا الألفى . . ليس جامعا فحسب
وليس جامعة فحسب وليس جامعا وجامعة فقط . لقد استحق هذه
الوقفه منا بما له من مآثر ومواقف وبصمات . لقد اشترك الأزهر فى
صنع الأحداث بمصر والمنطقة العربية بل والعالم الاسلامى ففى رحبانه
قام الخطباء والزعماء المصلحون وأهل الفكر من أنحاء العالم الاسلامى
بالدعوة الى اصلاح الدين والدنيا بما يعنيه الاسلام من شعائر وشرائع .

وممن تصدروا بالأزهر من أعلام الفكر الاسلامي عبد اللطيف البغدادي وابن خلدون .

وبالأزهر اتصلت حياة الأحرار وأصحاب الدعوات كالكواكبي حين جاء من سوريا ، بل من الأزهر سافر الشيخ محمد عبده الى الشام فالتف حوله السوريون سنة ١٨٨٥ م (يتلقون منه دروس العلم والحكمة والخير) . كما ترك الشيخ محمد عبده في بيروت أثرا عظيما . . بل ان بعض الدعوات الاجتماعية في بعض بلاد الشرق ، نهض بها أبناءها ممن تلقوا العلم في الأزهر وليس الى الشك من سبيل أن جزءا كبيرا من تاريخ باكستان المعاصر قد كتب في رحاب الأزهر . . وفي رحابه كتبت فصول من قصة تحرير أندونيسيا .

بل كذلك تونس وليبيا والمغرب والجزائر وكثير من بلاد أفريقيا وآسيا .

ان الأزهر حلم الملايين في القارتين

وفي الأزهر قامت الدعوة الى الإصلاح الديني على يد الشيخ محمد عبده والشيخ المراغي .

كما يمثل الأزهر « الساهر » على الثقافة الاسلامية .

ان أضبط مصحف كتابة ورسم وشكلا من عمل الأزهر

والمصحف المرتل

والمصحف المجود

انه عطاء للأزهر وللمدينة القاهرة .

والذي يسجل للقاهرة ويقف بالأزهر و (عليه) لايفوته أن الأزهر الذي كان يدرس لطلابه العلوم الدينية ، علوم الأدب والتاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية والرياضية أصبح الآن يحمل تبعاته في نهضة الأمة الاسلامية كجامعة كبرى لعلوم الدين والدنيا . . من كليات أصول الدين والشريعة واللغة . . الى كليات الحقوق والطب والهندسة والعلوم وغيرها .

ان الأزهر ومن ورائه مدينة البعوث الاسلامية ينهض برسالة ضخمة اليوم كالأمس . رسالة دينية واجتماعية وسياسية .

رويت أطيباها من قصتي مع القاهرة مثنى الحسين والامامين
والهاشمية الكريمة السيدة زينب .. مفاخر القاهرة .. وتعمل القاهرة
كل يوم على تعميق الدين في وجداني .. أقول كل يوم فالآذان في
القاهرة يسعد الاحساس فان جميع مؤذني المساجد في القاهرة كانوا
كما يروى الشيخ البشرى في كتابه « قطوف » (اذا ظهروا المآذن
للتهافت بالأولى أو « الأوله » .. ومن أوله الآذان هذه ، ابتدع يريم ،
فيما أرجح ، حسين تشرب الروح المصرية ، ألوان الأوله في الغناء ،
اذا آن الآذان وقف المؤذنون وقد أرهفوا آذانهم ، وعلقوا أنفاسهم في
انتظار الأمر الذي يصدر اليهم عن مثذنة الشيخ صالح أبي حديد
بنغمته التي يجرون فيها الأهازيج ليلتهم . فاذا جلجل مؤذن الشيخ
صالح بنغمه الرصد مثلا ، أسرع مؤذنو المساجد حوله بالتهافت بها ،
وأخذ أخذهم مجاورهم ومن تفتح لسماع أصواتهم ، وهكذا فلا تضي
دقائق الا والقاهرة كلها تجلجل بنغمه الرصد ، واذا بدأ بالبياتي
أو بالحجاز أو بالسيكاه .. الخ فهكذا .

وهذا دليل على القصد الى ضبط المؤذنين لأصواتهم ، وتحكمهم
فيها بذاتهم وعدم تأثرهم بالانغام الأخرى ، والا اضطروا الى الخطأ ،
ودفعوا الى النشاز .. وهو دليل في الوقت نفسه على أن أهل مصر
أو أبناء القاهرة على الأقل ، كانوا أصحاب فن ، وأهل ذوق ، وعشاق
تطريب .

على أن الشيخ البشرى لا يخفى دهشته من أين جاء مصر هذا
التقليد ولا حتى أين كان مهبطه من الزمان القريب أو البعيد ولعل ذلك
يرجع أن « البياتي » هو نغمة البلد الأصلية ، أو هو من أصل النغم
التي تتقلب فيها حناجر المصريين .. ففي الحق أن هذه النغمة ، فوق
سعة أفقها ، وتقبلها لكثرة التصرف والتكوين ، فان المصري يجد من
الاستراحة اليها ، والانس بها ، ما لا يجد لكثير . أو لعله يرجع الى
هدوء في طبيعتها ، يلين للحناجر قبل أن تصقل وتجلي ، ثم يتلطف لها
بعد ما نهكها الجهد الشديد .

لقد موسقت مصر الدين بطبعها الفنان . وقبل الاسلام كانت
موسيقى مصر الكنسية (أقدم مدرسة موسيقية معروفة في العالم) .

بل تكاد تكون أغناها أيضا بما انبثقت عنه من موسيقى مصر القديمة
موسيقى المعبد التي تحمل أسماءها الى اليوم ألحانا كاللحن النسبجاري
نسبة الى بلدة سنجار التي تقع شمال محافظة الغربية وكذلك اللحن

الانريبي نسبة الى اتريب القديمة بالقرب من الديرين الأحمر والأبيض.
بمنطقة اخميم .

ومن موسيقية مصر انها اتخذت دورا ذائعا فى علم القراءات فعن
ورث المصرى أخذ المغرب عن تلميذه الأزرق بن عمرو بن يسار المصرى
وأخذ الأندلس عن عبد الصمد المصرى أيضا . كم تفجر القاهرة بما هى
عاصمة مصر وعاصمة العواصم .

رويت أطرافا من قصتى مع الأزهر . ولكن الأزهر ومن ورائه
دولة الفاطميين له مع مصر قصته . ودولة الفاطميين كما تعرفون
شيعية . ولكن مصر لم تتشيع بل تهكمت من الفاطميين حتى فى
أوج حكمهم ، ومن تعاليهم حتى اضطروا كما يقول الدكتور كامل حسين
الى (أن يغربوا عقائدهم حتى تتلاءم مع طبيعة المصريين) بعد أن بابت
كل محاولاتهم لحمل مصر على اعتناقها بالفشل .

ابتدعوا الأعياد ومناسبات السرور والترفيه وألوانا من الطعام
والشراب ولكن مصر لم يستهوها شيء وان كانت جاملت أو سايرت فى
الامور البسيطة ولو من باب التغيير أو التفويت أو الثقة بالنفس فهى
الباقية بعد كل السطحيات . لقد مكثت الدولة الفاطمية نحو مائتى سنة
ومن ورائها ذهب المعز وسيفه ولكنها انتهت وبقيت مصر التى جمعت
رفاتهم ودفنتهم فى الدراسة ثم عادت تمارس النقش والتفويف والنممة
والتكفيت والترصيع وصياغة الذهب والفضة فى خان الحليل لأن الفن
هواها وهوايتها منذ القدم .

لقد زين ثلاثة من الدعاة للحاكم أن يدعى الألوهية استغفر الله
وراحوا يدعون له بين المصريين بعد أن نجحت هذه الدعوة فى الشام ومن
بقاياها طائفة الدروز بجبل لبنان وهم أتباع وأشياع الحاكم ولكن مصر
ثارت على دعاة الحاكم وقتل المصريون واحدا منهم وفر الآخرون من مصر .

واستدعى الحاكم ، رجله الكرمانى (الذى يعرف فى الدعوة
الاسماعيلية بحجة العراقي) ، لتهدة الخواطر . ولكن الكرمانى شايع
مصر لا الحاكم وكتب رسالة فى الرد على أحد دعاة تأليه الحاكم وأنكر
فى رسالته هذه ، ألوهية الحاكم وكفر القائلين بها .

وهنا ثاب الحاكم الى رشده بعد أن لقنته مصر درسا . فعدل عن
ادعائه . وقديما أعادت مصر الرشاد الى جده العزيز بالله بعد أن تهكمت
عليه كدأها يوم ادعى علم الغيب فكتبت له ورقة أودعتها المنبر يقول
فيها المصريون :

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماسة
ان كنت أعطيت علم غيب فقل لنا كاتب البطاقة
وأقلع العزيز عن بدعته بل اعتذر أخوه العباسي وكان شاعرا ،
بلسانه في قصيدة طويلة • انها مصر •

رأينا موقفا من مواقف القاهرة مع الفاطميين •• موقفا من العقيدة
يتفق مع طبيعة الاسلام البسيطة السمحة ، ومع طبيعة مصر الصافية
السهلة بلا كلفة أو تعقيد •• رفضت مصر أن تسلم بالآراء والأهواء التي
عرفت في بعض البلاد الاسلامية من التشيع أو سواء • لم تمل لهم مصر
ولم تتجاوب معهم بل لاذت بالمنعنى الجامع والكلمة الشاملة •

واذ آنس حكامها منها هذا الميل ، نزلوا على رأيها أو نزلوا عن
رأيهم •

وعرف الاسلام مصر ذات العقيدة الخالصة ففي القرن السابع
الهجرى عندما كثرت فيه الفرق والنحل واستشرى الخلاف بينها ••
واذ حزب الأمر تطلع الاسلام والمسلمون الى مصر لتحسب الموقف كدأبها
في الأزمات الكبرى فاتفق رأى العلماء على رجلا الشيخ تقي الدين
السبكي ليوفق بين المذاهب الأربعة ويخرج منها بالنفاذ المصرى واللمح
المصرى ، والوجدان المصرى مذهبا يرتضيه الناس ويرتاحون اليه ،
ويقرون عنده (١) •

ويتكرر الموقف مرة أخرى في عصر الشيخ الشعرائى وهو بلدى
السبكي • وقد حاول الشيخ الشعرائى ، مرة أخرى التوفيق بين المذاهب
الأربعة كمحاولة التوفيق بل أهل الكشف والعيان وأهل النظر والاستدلال
ويقول الباحثون الغربيون انه مصلح يكاد الاسلام لا يعرف له نظيرا •

ان أبرز ما تجلت شخصية مصر في العصر الفاطمى الذى تم فيه
تعريبها •• ففي عصر الفاطميين الذى يعتبره المؤرخون نقطة تحول في
تاريخ مصر من الناحية الدينية •• في العصر الفاطمى هذا وقفت مصر كما
رأينا وقفتها في الدين ، وفرضت أسلوبها على الفن فظهرت من جديد
طريقة الحفر العميق التى ألفها أجدادنا في منبر مسجد قوص وفي محراب
السيدة رقية •• وفي ألواح القصر الفاطمى الصغير في المتحف الاسلامى •

(١) كتاب (شخصية مصر) للمؤلف •

ومع الحفر الغائر والبارز ، التلوين والتطعيم والتخريم والترصيع
بالمينا ٠٠ حتى الفخراى المصرى البسيط تفنن فى تشكيل القلل وزخرفة
شبابيكها زخرفة تظفر بأعجاب الراى ٠

والفن الاسلامى فى مصر حين يطعم ويرصع ، انما يستجمع خبرات
المكان الذى أنطق الحجر ، ولعب بالذهب ، ومهر فى التشكيل والتصوير ؟
وهنا تخرج المشكاوات المصرية وكأنها صيغت من ضياء الجواهر النادرة
أتكلم عن حرف القاهرة ، تصعد جبل المقطم ليمنحنا اطلالة جامعة على
القاهرة ٠

كانت الوقفات السابقة عن عقل القاهرة وتفكير القاهرة فما كان لنا
أن نقف بالأزهر دون أن يفضى الحديث عن دور القاهرة الاسلامية فى
الدين والفن ٠ أقصد لمحات من هذا الدور فان استيعابه كاملا يملأ
مجلدات ٠

ولما كان الأزهر يتوسط القاهرة الاسلامية بأحيائها الشعبية
وما تحفل به من حرف وصناعات تروق وتشوق فانى آثرت قبل أن
أتكلم عن حرف القاهرة ، أن نصعد جبل المقطم ليمنحنا اطلالة جامعة على
القاهرة ٠

وأهل القاهرة منازلهم النيل والمقطم ٠٠ أما النيل فانتزع نفسى
انتزاعا من الحديث عنه الآن حتى لا يستوعبنى دون أن أستوفيه ٠٠
أتحدث الآن عن المقطم لقربه من الأزهر ٠

ان الجالس فى أعلى المقطم يرى منظرا عجبا ٠٠ هنا تطل عيني
وقلبنى على القاهرة ٠ المنازل تبدو لعيني أشبه بتلك التى يعرضها والت
ديزنى على الشاشة ٠

كل شىء يصغره البعد العادى منه والمعنوى ، ويكبره القرب ويكبره
الحب ، إلا الله فهو وحده الذى يظل فى الحالين كبيرا كبيرا فى العين
والقلب والضمير ٠٠ قربه رحبة ورضاء ٠٠ وبعده قوة وامتناع ٠٠ ليس
كمثله شىء وليس له كفوا أحد ٠

أعلى المقطم القاهرة تبدو وكأنها تزحف بيوتها وعمرانها الى سفح
الجبل ٠ لقد علتها واستراحت هذه الدروب الطموح وسحبت فى ركابها
أعمدة النور وأسلاك البرق ٠

عيني ترى منازل للحياة ومنازل للموت كان يظن فى وقت من
الأوقات انها نهاية الأحياء ونهاية حدود مدينة القاهرة فإذا بالحياة تمتد
بعدها الى مدينة المقطم حتى لتحصرها بينها وبين القاهرة القديمة ٠٠
دائما الحياة أقوى من الموت ٠

عيني تتزاحم عليها أشياء كثيرة يقابل بعضها ، بعضا .

من على المقطم يصفو وجه القاهرة لرائيه ومتمليه . . الشمس تسكب على مدينتنا الجببية دافقا من النور أبيض وهاجا . . وضحكت لي من بعيد القاهرة . . الجميلة الأسرة . . العظيمة الأهله . . أسفرت على يميني المنازل الكبيرة والعمارات الشاهقة والمآذن السامقة والقباب . . وأرى من المقطم القلعة بشموخها ورسوخها . . ما أحفل تاريخ الانسان بالعبرة . هذه القلعة بقبابها المتدرجة فى الارتفاع تمثل تاريخا فى العيش والتفكير . . كان الانسان حين بناها . . يحتفى بالحصون والقلاع يشيدها على ارتفاع ، وينشد عندها الملاذ والامتناع ويرمز بها الى القوة والضمان فاذا به اليوم بعد غزو الفضاء وسيادة الطيران يرجع الى الأرض وما أكثر ما يرجع اليها - يودعها ذخائره وينحت خنادقه فى هذه الخالدة الباقية . . هذه الأرض الطيبة منها خلق ، وفى رحابها نشأ ، وفى مناكبها مشى ، وبها شب ، وعليها درج ومنها خرج ، واليها يعود .

جبل المقطم :

وفى اطلالة على القاهرة من الجبل رأيت كثيرا . . وبعض هذا حى الراحين . . وكانت جدتى فى المواسم كسائر المصريين تتذكر الأعراف الغائبين وتترحم عليهم . . أما أنا فكنت أرى فى القرافة أشياء أخرى . . لاحظت صغيرة أن الزحام يعرف حتى القرافة فهى لا تظفر بالهدوء أو الصمت ان الزحام فيها ، ألوان . . فى الأشخاص والأصوات والحركات والمعاني والعبر ولعل أشد هؤلاء اثارا للانتباه ، الفقهاء .

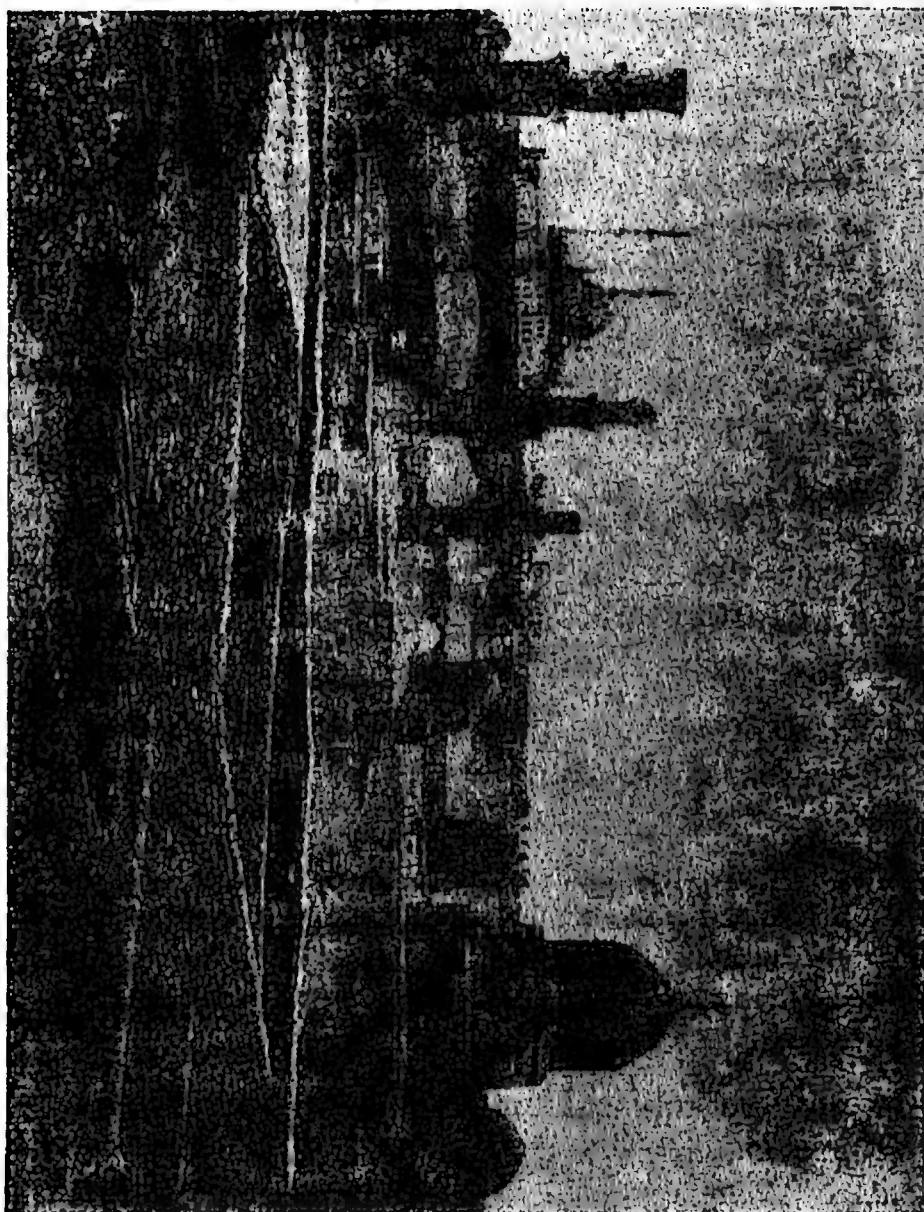
هؤلاء الفقهاء معلم بارز من معالم (القرافة) فهم فى (المواسم) يجوسون خلال المقابر فى البكرة الندية يمشى الواحد منهم يتدلى ذراعه الى جانبه ويتدلى من الذراع جعبة انطبق بعضها على بعض . أما عيناه فهما تدران فى كل اتجاه كالمصائد الذى يتشمم ريح فريسته حتى اذا لمح على البعد شبحا جلله السواد حث الخطى نحوه وتنحنع وسعل فاذا دنا منه ألقى تحية الصباح . . وقبل أن يجيئه الرد يعرض خدماته ثم يردد عبارات محفوظة فى حكمة الحياة والموت والزوال والبقاء يستنزل بعدها للمرحوم الرحمة ، ثم يعود الى موضوعه الاصلى فيقترح على السيدة المحزونة أن يقرأ سورة فاذا هبطت عليه بعد طول الحاح الموافقة ، قعد القرفصاء وأخذ يتلو متمهلا مجودا ، وعيناه . . عيناه لا تستريحان من مهمتهما بل تظل كما كانتا تدوران فى كل اتجاه ، حتى اذا لمحت على البعد مرة أخرى ، شبحا اسود - أسرع فى القراءة متخطيا آيات مزدردا

أخرى ، وكان مسا من كهرباء سرى فى لسانه وجسمه كله ، فهو يطوى
السورة طيا حتى يصل الى آية مبشرة تصلح للوقوف عندها ثم يهب
واقفا وقد مد يده فى انتظار الأجر ومد رجلا على استعداد للعدو واللاحق
بالصيد الثانى ٠٠ وهكذا ٠٠ وهكذا يظل واحدهم يومه كله فى مطاردة
واقتناص ٠٠ وأكثر السور دورانا على ألسنتهم - (الكهف) و (الرحمن)
لست أدري هل لسهولة يحسونها نحوها من طول ترديدهما أم بناء
على طلب الزباين فان لهاتين السورتين جاذبية خاصة عند السيدات
والكبيرات خاصة وفى سورة (الرحمن) موسيقية عذبة لأنها تجرى فى
الأسلوب على نظام القواصل مع القصر والتتابع والألف فى الآية التى
تتخلل السورة كثيرا « فبأى آلاء ربكما تكذبان » حرف المد هذا مريح ،
ثم الصور الجميلة فى السورة ٠٠ النعيم الموعود ، فيسه من كل فاكهة
زوجان ٠٠ ونخل ورمان وحوار عين كأمثال اللؤلؤ والمرجان تستهوى من
علت بهن السن أو لعلها تغريهن فى مغرب العمر عن الدنيا الداهية هذا
إذا كان هناك سيده تعترف بالسن . والحقيقة أننى كلما سمعت هذه
السورة تملأ على صورة جدتى خيالى ونفسى بل تملأ على المكان كله فقد
كانت تصفو الى المقرء وهو يقرؤها فى استغراق وحنان وتتمم ، وأذنى
تسمعها كلما ورد ذكر الجنة « لم يتمتعوا فى الدنيا يتمتعوا فى الجنة
ونعيمها » وتنشج روى من أجلها ومن أجل أعزائها أعزائى - جتى اذا
انتهت السورة أحسست أسمى الكبيرة براحة كبيرة تسرى بدورها الى ، وكان
السورة سكبت عليها برد الرضا وثأبيب الرضوان .

ولكن أشد ما يضايقنى من مقرئى القرافة ، ازدرادهم كلمات
الكتاب الكريم وخاصة فى هذه الآية التى أعدها لوحة رائعة لا أمل النظر
اليها والتعمق فيها « وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين
واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ، ذلك من آيات الله
من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ٠٠ تحسبهم
أيقاظا وهم رقود وتقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلهم باسط ذراعيه
بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا » .

هذه الطاقة الهائلة من المعانى والصور التى شحنت بها الألفاظ ٠٠
أى كهف هذا وأى ناس أولئك الذين راحوا فى سبات عميق ٠٠ لا يحسون
نائمة ولا يسمع لهم ركزا ليسوا من الدنيا اليقظي حولهم ولا الدنيا منهم
حتى الشمس تزاور عن كهفهم فى المشرق والمغرب ٠ أنا عاجزة عجزا
تاما عن تصوير ما بنفسى من الاحساس نحو هذه الكلمة « تزاور » بما
فيها من عزوف مقصود أو غير مقصود ٠٠ بما فيها من تجاهل ٠٠ بما

(Գրադարանի տեսք)



فيها من اعراض ، ان الشمس التي تزور الدور كالتصور بدون تمييز أو
محاكاة تزاور عن كهفهم ..

هذه الآية المشحونة بطاقات التعبير وقدرات الكلمة الغنية بالرمز
والاشارة تضيق في تطوحات رأس فقى القرافة ورقبته المترنحة .. تضيق
على لسانه الذي يدور .. كالطاحون ينهب الحروف نهبا فيطوى السورة
في دقائق تسيء الى المعاني والصور وأرقى وأجل فنون البلاغة . أنا أعرف.
كلمة فقيه بمعناها المقصود من التسمية كلمة جلييلة عالة ولكنها حين
خرجت عن مدلولها الأصلي لنطلق على هؤلاء نصل لونها حتى لتذكرنى
بالمثل الشعبى (من خرج من داره اتقل مقداره) وكثيرا ما تصدق الأمثلة
على الأشياء كما تصدق على الأشخاص .

ليتنا نقرأ الفاتحة بأنفسنا في احتشاد وفهم واحساس . فنحفظ
للأعزاء الراحلين جلال الذكرى ونحفظ للكتاب الكريم هيئته ومكانه
وكلها بلا حدود .

في الصفحات السابقة زرنا حى الراحلين ورسمت صورة لمقرئيه
ولكنى بعد أن تعلمت وقرأت وطفقت بكل شبر في القاهرة بل في مصر
كلها سياحة في المكان والزمان أصبح لى الراحلين صورة مقابلة في
ذهنى .. لقد أحببت مصر الحياة .. بل ان حضارتها حلم بالخلود ورغبة
حميمة في البقاء وتعلق به .

كان أسلافنا من حبههم للحياة لا ينطقون اسم الموت بحروفه بل
يكنون عنه فيقولون عن الميت (عبر الى الضفة الأخرى) أو (ربط حبال
السفينة في المرساة) أو (سافر حيا) .

وكما نعتقد بعد الاسلام أن الانسان الصالح جزاؤه عند ربه جنة
النعيم ، كان قدماء المصريين يعتقدون أن الحياة الأخرى انما تكون في
السماء ، والعالم الآخر عندهم ليس العالم السفلى بل العالم السماوى .
(الموت هو الصعود الى السماء على شعاع من نور فكانوا يقولون (ولقد
ضرب لنفسه شعاع « رع » ليصعد فيه) .

والمصرى القديم كان يرى في بهاء سماء مصر الصافية ليلا ، أرواح
أعزائه السابقين تنلأ وتطل عليه في شكل نجوم .. فنجوم السماء في
عين المصرى أرواح الأحبة .

كان المصرى لا يتصور أحبابه الراحلين موتى في بطن الأرض بل
أرواحا مجنحة تحلق كالطيور وترتفع في السماء وترتفع على الأعداء فإذا

أقبل الليل ، تملأها في الجهة الشمالية من السماء نجوما أبدية أو كما
يسمونها (غير الفانية) .

وتصوره هذا يفسر بأنه يقصد النجوم القطبية التي لا تغرب
ولا تغيب .

شفاف هفاف خيال مصر كروحها .

التابوت المصرى ، فى المتحف ، غطاؤه فيه نوت الهة السماء تنشر
ذراعيها كجناحين أى دعاء بالرحمة والصعود فى انطلاقة من الاسار الى
الرحبات العليا .

الراحل المصرى تظلل السماء وترعاه

الحنان لا يفارق المصرى حيا وميتا .

والموت فى الرؤية الدينية ، رقى ، بالانتقال من حياة الجسد الى
الروح وقد تكشف القلب المصرى هذه الرؤية قبل الأديان فاستعلى على
الموت بالخلود أعمالا باقية وذكرها عاليا ، وتاريخا مسطورا .

وما المولد مرتبة تلقى وتؤخذ من شفاه الجاهلينا
ولسكن منتهى هم كبسار اذا فنيت مصادرها بقينا
وأخذت من فم الدنيا ثناء وتركك فى مسامعها طينا

حديقة الأزبكية

تكلمت عن حب مصر للحياة والفرحة بها . وأظهر ما يتجلى هذا فى
الفن . حتى حين تكون مصر جريحة مثخنة بالجراح والديون . لم
ينقطع عطاؤها للفن . والقاهرة فى طفولتى وصباى ولم تكن مصر قد
استقلت بعد ، كانت تشرق بحديقة الأزبكية وأكشاك الموسيقى والفرق
الموسيقية والمسرحية العالمية وكان شارع عماد الدين حاشدا بالمسارح حتى
كان يسمى شارع الفن .

عند حديقة الأزبكية التى تحولت الآن الى بوليس نجده ولم ينجدها
أحد حين ذبحت أشجارها وطمس جمالها . كانت حديقة الأزبكية كما
تحكى جدتى فى وسطها الفسقيات تتناثر حولها المصابيح وبها الجبلية على
أبدع طراز وتخوت الطرب وكانت الكراسى تؤجر بثمان زهيد لعشاقه فلما
شبت ثورة ١٩١٩ كانت حديقة الأزبكية مسرحا للمقاومة السياسية منها
والاجتماعية ويقول أستاذنا الدكتور حسين فوزى أن البوليس لم يكن
يتدخل فى هذه الاجتماعات الا بقدر المحافظة على النظام فيها وحولها .

كانت حديقة وكانت تاريخا . وقد مسخنا الحديقة ولم نحفظ

التاريخ • رأينا الأوبرا تحترق وفي قبالتها المطافى الرئيسية لمدينة القاهرة فلا تعلل بالتليفون أو المواصلات بل الأوبرا التي كانت تكمل وتتم بهاء حديقة الأزبكية والقاهرة معا •

الأوبرا التي أنشئت سنة ١٨٦٩ معلنة سبق مصر فى الأخذ بجوهر الحضارة الحديثة وأنشئ معها فى سنة ١٨٦٩ مسرح مصرى تعرض على خشبته تمثيليات مصرية •

وكان ذلك حدثا جديدا • فالى ذلك الحين لم يكن أحد قد كتب أو مثل على مسرح وطنى أمام النظارة كما يقول الناقد الفرنسى (جان لويس بارو) . وكان انشاء مسرح عربى فى ذلك الوقت ، يعد مجازفة كبرى لاعتبارات كثيرة •

وهكذا بدأت الحياة المسرحية فى مصر • • بدأت فيها ، وبها ، قبل أن يفد عليها سليم نقاش وزملاؤه لائذين بها أمام ضغط السياسة فى بلدهم •

وحين أطلق الشام الصبيان فى الشوارع ينادون على المسرحى أحمد أبى خليل القبانى :

أبو خليل مين قالك على الكوميديا مين ذلك
ارجع لكارك أحسن لك ارجع لكارك قبانى

حين حدث هذا فى الشام تحمس المصريون للمسرح وأقبلوا عليه بل تزامموا على مشاهدته • بل شاركوا فيه بطريقتهم الخاصة وهى التعليق على الأحداث وتوجيه الأبطال فى عملية تأليف فورية •

لقد اشترك فى كتابة المسرحية فى مولد المسرح المصرى أى فى القرن التاسع عشر الزعيم المصرى مصطفى كامل فكتب مسرحيته (فتح الأندلس) سنة ١٨٩٣ •

هل يعزى هذا الى طبيعة الشعب المصرى أم الى المناخ الثقافى فى مصر ؟ أم الى سبقها فى الاتصال بالغرب منذ الحملة الفرنسية وما أعقب الصحوة من ارسال البعثات الى أوروبا والوقوف على أسرار التقدم بوعى متفتح بين الفروق حتى ان الشيخ رفاعه الطهطاوى ابن الأزهر وابن الصعيد فرق فى هدوء وواقعية بين الرقص الشرقى والرقص فى الغرب • • فرق بين العفة وبين الاختلاط ولم ير فى مشاركة المرأة ، الرجل ، خطرا عليها طالما كانت محصنة تحصيننا صحيحا بالتربية الحققة والتعليم الجوهري •

وتحكى جدتى عن المسرح وكانت تنطقه المرصيح بتقديم الرأ وقلب
السین ، صادا • وتفيض عن الشيخ سلامة حجازى و « السلامات » التى
كان يغنيها والجوقات •• وعن لياى أرض شريف الذى كان ينفق على المسرح
من ماله • كان أغنياء عصرها ، أصلاء وأهل نعمة وأصحاب دور فى الفنون
والوطنية لأنهم أصلا من بيوت نعمة •

وتحكى جدتى عن الشيخ سلامة حجازى وكيف نشأ نشأة متواضعة
فعمل صبي حلاق وشارك مع المقرئين والمنشدين فى الأذكار وتعلم أثناء
ذلك العزف على (السلمية) ولحلاوة صوته وهو فتى ، جعلوه يؤذن الفجر
فى مسجد بالاسكندرية فكان صوته يجذب النهار •• وأداس •• الناس
•• كانوا ينظرون مذهولين كأن الأذان انهل عليهم من السماء ، عليه نعمة
من روح بلال مؤذن الرسول •

تقول روز اليوسف فى مذكراتها عن تلك الفترة ، ان روايات المسرح
فى ذلك الوقت (لابد أن يكون بطلها مطربا ، ولابد أن يغنى المطرب فيها
بضع قصائد لا علاقة لها أبدا بموضوع الرواية •• بل لمجرد اجتذاب
الناس الذين كانوا لا يشهدون الا اذا كان فيه « مغنى ») •

ألم أقل ان أهل القاهرة أصحاب ذوق وأهل فن وعشاق تطريب ؟

ومن حديث روز اليوسف نفهم سر زج الشيخ سلامة حجازى بالأغاني
فى مسرحياته حتى الدرامية العنيفة مثل هملت وعطيل بل كان يزوج فيها
بمنولوجات الوعظ والارشاد مثل منولوج (فتى العصر) و (فتاة العصر) •
وكان يختم مسرحياته بفصل مضحك ولا موضوع له ولا هدف منه
الا (الضحاك) لا غير ترويجا وترويجا •

ويبدو أن تقليد (الفصل المضحك) انتقل من الشيخ سلامة حجازى
مع رواياته الى فرقة عكاشة •

ومن طرائف التمثيل فى ذلك العهد أن المسرحية كما تحكى جدتى
كانت أحيانا تختتم باستفتاء غنائى عن الرواية المعروضة • فقد ختمت
مسرحية (البدر لاح) وكان مؤلفها عبد الحميد كامل بهذا الاستفتاء :

مش بشرفكم وبدمتكم الرواية دى جت على كيفكم

قولوا الحق يا أيوه يا لا ما حدش راح يزعل منكم

وهو استفتاء خفيف الظل وان كان يبدو أنه صاحب نظرية نعم ••
أو لا ياها •

وتحتفظ ذاكرة جدتى بأسماء كثيرة فى عالم المسرح فى زمانها .
وعندما قرأت لنفسى عن المسرح لمست صدق ذاكرتها تلك المصرية التى
كانت لا تقرأ ولا تكتب .

حين قرأت لنفسى تبين أن بداية القرن العشرين كانت بداية كبيرة.
للمسرح المصرى عمادها جورج أبيض وعبد الرحمن رشدى المحامى وعزیز
عيد ونجيب الريحاني وعمر وصفي وأحمد فهمي وأمين صدقي ومحمد بهجت
وفؤاد سليم وعبد العزيز خليل والماظ ستاتي وسرينا ابراهيم وصالحه
قاصيه واستر واحسان كامل وغير هؤلاء .

ومن بين هؤلاء كون جورج أبيض فرقته التى عملت على مسرح
برنتانيا القديم الذى يحل محله الآن محل شمالا بشارع ٢٦ يوليو .

وقد شهدت القاهرة نهضة مسرحية حين كان شارع عماد الدين
يزخر بالمسرح والفرق التمثيلية وخیال الظل والألعاب البهلوانية بل عملت
فيه فرق تمثيلية واستعراضية أوروبية كان يجذبها إليها فعلى خشبة
الكورسالى رقصت أنا بافلوفا أثناء طوافها حول العالم ومثلت ساره برنار
فى أواخر أيامها .

وأقبل القاهريون على المسرح حتى ان أصحابه الرواد لم تعيهم
الوسيلة فقد حدث أن (عزیز عيد) لم يجد مسرحا خاليا حين كان يقوم
بتمثيل رواية : (خلى بالك من اميل) فقرر أن يستأجر صالة جراج فى
شارع الفجالة فيها ما يشبه خشبة المسرح غير أنها مكشوفة ليس لها
سقف ، وأرضها واسعة ليس فيها مقاعد . ونشر فى الاعلانات عن الرواية
(ان على كل مشاهد أن يحضر معه مقعد ليجلس عليه) .

ولعله كان أول مسرح فى الهواء الطلق عرفته مصر ، وتروى فاطمة
اليوسف أن كل واحد من المتفرجين كان يجيء بخادم يحمل له مقعدا
أو (فوتيلا) ضخما من الفوتيلات المغطاة بالثيل الأبيض التى كانت
شائعة فى البيوت فى ذلك الوقت ، فاذا جاءت أسرة بأكملها اجتاحت الى
حمولة عربية من المقاعد والفوتيلات أ فكان هذا المسرح من أعجب المسارح
فى تاريخ التمثيل .

ومما يحكى من طرائف المسرح فى ذلك الوقت أن جورج أبيض حين
انضم الى أسرة رمسيس ، مثل رواية (سيرانودى برجرارك) وهى رواية
تحتوى على خمسة عشر منظرا . وهى تحتاج الى أداء محكم سريع واستعداد
فنى كامل لتغيير المناظر فى وقت قصير . وهو مستوى لم يبلغه المسرح
المصرى فى ذلك الوقت . فكانت النتيجة أن استمر تمثيل الرواية حتى
مطلع الفجر .

ونام الكثيرون منكمشين من البرد ، فلما خرجوا وجدوا القاهرة وقد
استيقظت مع تباشير الصباح .

وفى اليوم التالى اجتاحت القاهرة موجة من الطلاق بسبب هذا
الحادث الفنى الفريد .

كم سمعت عن القاهرة وكم قرأت وكم شاهدت فلا تروى أذن وعيني
على كثرة لعب وطول الرشيف .

ومع ازدهار الفن فى القاهرة ، ازدهرت الصحافة الفنية فكانت تصدر
فى القاهرة سبع صحف فنية غير الصفحات الكاملة للفن فى الصحف
اليومية الكبرى وكان للنقاد الفنيين فى النهضة المسرحية دور لا يقل عن
دور القائمين بها أنفسهم .

وكانت كل جريدة أو مجلة تفسح للمسرح صفحة أو صفحات
وتخصص كاتباً من كتابها اللامعين للنقد المسرحى .

رأينا اهتمام الصحافة بالفن الذى كانت له صحف ومجلات قائمة
بذاتها فضلاً عن الصفحات فى سائر الصحف التى كانت كل منها تخصص
كاتباً من كتابها اللامعين للنقد المسرحى . كان الأستاذ التابعى يكتب عن
المسرح فى « الأهرام » بتوقيع « حندس » والأستاذ إبراهيم المصرى يكتب
فى مجلة « التمثيل » والأستاذ محمود كامل المحامى فى جريدة « السياسة »
ومحمد على حماد فى « البلاغ » وزكى طليمات فى « المقطم » ، وعبد المجيد
حلمى فى « كوكب الشرق » وظل الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية
الأسبق زمناً يكتب عن الفن فى « روز اليوسف » أول صدورها ، كما كان
الأستاذان إبراهيم عبد القادر المازنى ومحمد توفيق دياب يكتبان أيضاً عن
المسرح من حين الى آخر .

وكان أديبنا المازنى من نقاد الفن . وما يروى عنه ، أنه كان مختصاً
بكتابة النقد الفنى فى جريدة « الأخبار » التى كان يصدرها المرحوم أمين
الرافعى . ومن نقاد المسرح فى نهضته الأساتذة حبيب جاماتى وجمال الدين
حافظ عوض وفكرى أباطة وحنفى مرسى الذى كان يوقع باسم (الأحنف) .

كان شارع عماد الدين يسمى شارع الفن لكثرة ما به من مسارح
وفنون . وكانت المسرحيات يعتمد كثير منها على الترجمة ومنها مسرحيات
الريحانى التى كان أكثرها فرنسى الفكرة مصرها الرجل الموهوب وأجاد
توزيع الأدوار ثم يأتى بعد هذا كله (شخصية الريحانى) وكان لها أثر
كبير .

وشمل الاقتباس والتعريب مسرحيات سليمان نجيب وبعض
مسرحيات تيمور العصرية ، كما تمثلت المسرحية التاريخية والأساطير
كمسرحيات الحكيم وباكثير وعزيز أباطة .

هذا الى مسرحيات شعبية تشيع فيها الفكاهة والنكتة أو مسرحيات
غنائية (أوبريت) مثل العشرة الطيبة التى لحنها سيد درويش .
وقد استطاع سيد درويش فى حياته القصيرة أن يحدث دويلا لم
يخفت صدهاء بل امتد شأن النهضة الأصيلة . ومن امتداداته إبراهيم
فوزى وزكريا أحمد والقصبجى ومحمود الشريف وأحمد صدقى .

وتبعاً لهذه النهضة وجدت الأوركسترا والتأليف الموسيقى والمقدمات
الموسيقية للمسرحيات كما وجدت المعاهد الموسيقية بل أرسلت البعثات
الموسيقية الى فرنسا لتكوين نواة للثقافة الموسيقية ولأول مرة فى الشرق
تتكون الأوركسترا الكبيرة على يد مصر . وغدت أوركسترا الاذاعة المصرية
تضم جميع الآلات السيمفونية .

المقاهى الفنية :

وبعد أن تحدثت عن القاهرة والمسرح التمثيلى منه والغنائى وصحف
القاهرة الفنية أتحدث عن المقاهى الفنية فى القاهرة فقد كان غير قليل من
مقاهى القاهرة فى ابان نهضتها المسرحية أشبه بمنشآت (فقهاء الفن)
يجتمع فيها نقاد الفن كما كان يجتمع الأدباء : طه حسين - الحكيم -
أبو شادى - د. ناجى - أحمد رامى ومدرسة أبولو - وكانوا ينظمون
الشعر فى كواكب عماد الدين ، كما شهدت (القهوة) معارك حامية بين
النقاد وأصحاب الفرق المسرحية . كان هناك المقاهى الوطنية ويرتادها
العقاد والمآزنى وحافظ إبراهيم والكتاب السياسيون .

أما (القهوة التجارية) فى مدخل شارع محمد على فكانت منتدى
للفنانين خاصة حتى لكانها نقابة لهم . وقد استقل بها اليوم فلول.
١ (حسب الله) .

وفى الشارع نفسه مقهى الكتبخانة اذ كان يقع أمام دار الكتب
المصرية حيث يتصدره حافظ إبراهيم . وفى أوقات العمل الرسمية يندو
اليه موظفو الدار والأدباء والظرفاء وفى مقدمتهم الشيخ عبد العزيز
البشرى .

وبار اللواء وهو مقهى الحزب الوطنى حزب مصطفى كامل ومحمد
فريد .

ويحكى أن أمير الشعراء شوقي كان يؤثر بار سان جيمس وبار صولت وتكتمل الحلقة في العاشرة مساء بعد أن يصل فلا تنفض الا في الواحدة بعد منتصف الليل .

ومن مقاهى الفن والأدب وسائر طبقات المجتمع في الحقيقة خاصة في رمضان ، الفيشاوى .

وقد حكى لى شاعرنا رامى أنه كان فى شارع خيرت مقهى مرح يعلو فيه صوت ظرفاء هذا الشارع ويستطيع السائر أن يميز صوت امام العبد وحسين الترزى وهما يتنادران ويتضاحكان والآخر من أساتذة أم كلثوم فى فن النكتة . وكانت غاليتنا تقول ان أحلى كلمة سمعتها من حسين الترزى قوله فى الشتاء : لو كان الواحد يقدر يحط رجله فى جيوبه .

أما مقاهى روض الفرج الخشبية فى حى النيل وقربه فقد كانت تعج بالفنانين أصحاب الأسماء الكاريكاتورية وهى بأنسها الشعبى مصيف القاهرة الشعبى .

ومن بين هذا الحشد الحاشد من مقاهى القاهرة مقهى لا ينسى هو « كافيه ريش » ولياليه الغنائية والتاريخ الفنى للقاهرة يسجل لهذا المقهى الليالى التى أحياها صالح عبد الحى والشيخ أبو العلا وتلميذته الأستاذة بالموهبة والدرس معا ، أم كلثوم التى جاءوا بها اليه كما يقول رامى ، طفلة تردد التواشيح فكان صوتها ينفذ الى القلب والسمع ويسرى فى مسامع القاهرة صافيا نقيا ماسيا لا ينسى كما سمعه جيل بعد هذا بسنوات عديدة ، وماسيته أشد توهجا . . وكما ستسمعه أجيال عديدة فأم كلثوم بعد الرحيل أطول حياة وأطول قامة وهامة . انها علامة ونقطة تحول . . انها أم كلثوم .

تحدثت فى الصفحات السابقة عن مقاهى القاهرة بوصفها منتديات ثقافة وفن وأدب . وقد شدنى حديث المسرح فوقفت عنده أكثر من مرة . دعونى الآن أتحدث عن نيل القاهرة أيام كان النيل تحتفل به مصر كلها وتحتفل به القاهرة .

طالما ابتهجت طفلة بهذه الأغنية التى كانت تردها دروب القاهرة عند الفيضان معلنة فرحنا بفيضه .

يقول المنادى :

وحل جبر خاطر ويردد الأطفال وراءه عوف الله
دا شيء من السنة لسنة عوف الله وتعيشوا الى كل عام عوف الله

والنيل السعيد له فرحة عوف الله وكل عام يجينا خاطر عوف الله
تخلي له الأرض ليسكن عوف الله ومجيئه به يسر الحاطر عوف الله
والاغنية طويلة جميلة سجلها على مبارك باشا فى الخطط التوفيقية
بل سجلها ادوارد لين فى كتابه عن عادات وسلوك المصريين المحدثين .
The manners and Customs of Modern Egyptians.

يقول ادوارد ولين :

ويعلن ارتفاع النيل فى شوارع العاصمة يوميا ، ابتداء من السابع
والعشرين من بؤونة (الثالث من يوليو) أو ما يقرب من ذلك . وهناك
عدة منادين يقومون بهذه الوظيفة . . فيختص كل منهم بقسم من أقسام
القاهرة .

وكان المنادى يجول مبكرا فى الصباح ويصحبه ولد ويعلن أهل الحى
ببشرى فيضان النيل .

وقد كنت أعرف الفيضان بطريقة أخرى فقد كانت جدتى تلبس النيل
بالألفاظ طبعاً ألوانا فتقول البحر لابس الجبة الخضراء أى مياهه خضراء وتكون
هكذا عادة فى شهر يونيه والخضرة هذه ظلال النبات المائية عليه حين
يكون المجرى منخفضاً . . وتقول البحر لابس الجبة الحمراء وذلك عندما
تكون مياهه محملة بطمي الفيضان .

وتسمع أذننى منها ومن الجارات والقريبات ان النيل له يوم فى
السنة ينام فيه . والسعيد من يحظى منه برشفة أثناء نومه ففيها روح من
قوة ، ونفحة من حياة ، ولمحة من جبروت والشقى من دنا من النيل ساعة
يقظته . . انه عندئذ يطويه . وهى مقولة مصرية قديمة ، وعندنا فى
الصعيد . وتردد هذا أيضا فى القاهرة أن فلان يمسح الريال بفركة من
أصابه . . وتساءلهم كيف ؟ يقولون عن ايمان . . انه قد مسه عرق
الصبا ، لاعتقادهم انه فى ليلة القدر يقف الماء فى النيل لحظة ، فمن
يشرب منه فى هذه اللحظة يمسح عرق الصبا .

وهو كما نرى ، امتداد لمعتقداتنا القديمة فيه .

ولكننى على شغفى صغيرة بهذه الحكايات كان أهم منها عندى أن أرى
احتفال الفيضان أى الزفة . . . وطالما سعيت الى هذه الزفة كلما حل

(١) نقل الكتاب الى العربية ، الأستاذ عدلى طاهر نور بعنوان (المصريون المحدثون
شماثلهم وعاداتهم) .

موعدها وأكون في القاهرة ٠٠ حتى حين سارت بي الأيام واخترت موضوع رسالتى فى الدكتوراه « النيل فى الأدب المصرى » سعت من جديد الى الشاطئ بوعى أكبر لحضور مهرجان النيل وسعت قبله الى سراى المحافظة لأرى كتابة الحجة الشرعية التى يحضر كتابتها مندوب عن رئيس الدولة ملكا أو رئيس الجمهورية كما يحضرها العلماء والمدنيون والعسكريون ورجال الصحافة والاذاعة والتجار والأعيان .

وبعد القرار الصادر أمامهم من رجل وزارة الأشغال المنوط به قياس النيل بمقياس - الروضة وسماع شهادة الشهود الذين يندبون عادة من وزارة الشئون الاجتماعيه ٠٠٠٠ بعد الاقرار من هؤلاء جميعا بأن النيل بلغ بمقياس الروضة ط ١٩ ٢٢ ذراعا واقرارهم بأنه ببلوغ فيضان النيل هذا المقدار يتوفر رى الأراضى المصرية . يعلن مفتى الديار المصرية وفاء النيل المبارك وبذلك يتعين وجوب جباية أنواع الضرائب المقررة الخ .

الذى استوقفتنى فى الحجة ختامها بهذه العبارة (وتمت بنعمة الله تعالى على هذه البلاد بكمال فيض نيلها المبارك سبب نماء رزقها ومصدر حياتها ، فحق علينا جميعا حمده سبحانه والثناء عليه بما هو أهله . وشكره على ما أولاه من نعم ، حمدا وشكرا يقربان من رحمته ويجذبان رضاه وتوفيقه . وانا لنضرع الى الله العلى القدير أن يديم على وادى النيل نعمة خصب أراضيه وكل ما يوفر له النماء والرخاء ولأهله السعادة والاطمئنان) .

وقد حرصت وقتئذ على صورة من هذه الحجة أعز بها بل سعت فى طلب أقدم حجة محفوظة لأتبين من خلالها تطور الصيغة أو مراسم الاحتفال فكان أقصى ما أمكننى الوصول اليه نص حجة وفاء النيل ١٩١٥ من دار المحكمة العليا الشرعية .

أما الاحتفال فقد رأيت بعينى كيف تحتشد الحكومة والشعب على الشاطئ . وركبت الباخرة (كريم) ، ورأيت (العقبة) وهى تسير من ساحل روض الفرج بأعلامها بين عزف الموسيقى ، وقصف المدافع ، وخرير الموج تحدها الزوارق البخارية لتحيتها . وكلمها أهلت باخرة فيلية أطلقت صفارتها تحية لها . وكلمها لاحت لقرية تدافع الأهالى نحو الشاطئ يهللون متواثبين من الفرح . رأيت الأيدى المشققة والوجوه التى لوحتها الشمس . الرجال والنساء يحملن الصغار على أكتافهن بيد ويلوحن لنا بالأخرى . رأيت سيدة ريفية تنزع خمارها لتلوح به ورأيت رجلا نزع جلبابه ومضى فى التلويح حتى ابتعدت بنا (الباخرة عنه) .

كان الشاطيء بعيدا نوعا فلم أميز وجوه المراكب الساعية اليه .
ولكنهم كانوا فى خيب يوفضون وهم يصيحون ويغنون وكانت العقبة
تصفق لهم أو معهم ، فاذا أجدت الباخرة فى سيرها ، هرولوا على الشاطيء
ليجدوا ركبها وكان يوم الوفاء قد نسج من ضياء وماء . ومناديل وأهازيج
وزغاريد وهمرجة وزياط وحمائم بيض ورايات خضر وجنود وبنود وموسيقى
حتى اذا بلغت (العقبة) « باسوس » عادت ثانية الى ساحل
روض الفرج .

ما هي قصة العروس ؟

كنت أتلى النيل وأشارك فى أفراحه فى يوم وفاته .

رأيت مراكب الأحياء على شاطئيه

ومراكب الموج بين ضفتيه

ومراكب النور فى السماء ترسل اليه

ومراكب الشجر والنبت على جانبيه

ولكنى لم أر عروسا تلقى فيه . وعندما درست هذا الموضوع فى
رسالتى عنه تبين لى أن قصة عروس النيل خرافة تستند الى أسطورة
روجها المؤرخ الاغريقى بلوتارك وروجها بعده كتاب الاغريقى واللاتين خرافة
تقول أن « اجبتوس » ملك مصر أراد اتقاء كوارث نزلت بالبلاد فنصحه
أتباعه أن يضحي بابنته بأن يلقيها فى النيل ففعل ، ثم ناء بالرزء الذى
ألم به ، فالتقى بنفسه فى النيل فهلك كما هلكت ابنته .

ولكن هذه الخرافة لا أساس لها من الصحة بدليل أنها لم يرد لها
ذكر فى الكتابات المصرية . وهى مع ذلك مصدر الأسطورة التى ذاعت فى
الناس قرونا ، ونسج حولها الخيال من فنون الرواية والقصص ما جعل
كثيرين يثوهمونها حقيقة حدثت بالفعل وأنها كانت تتكرر فى كل عام .

لقد كان على النيل محاريب لحابى اله النيل وكان يوضع فى كل
محراب طاقة من الزهر تجدد فى كل يوم ، وستة تماثيل من خشب الجميز
لحابى اله النيل وستة تماثيل أخرى من الخشب نفسه للالهة « ربيت »
زوجة النيل . هذا عدا تماثيل أخرى للاله حابى مصنوعة من الذهب
والفضة والأحجار المصرية المختلفة الأنواع كالمرمر واللازورد والزمرد
والبلور الطبيعى وكانت هذه التماثيل كلها تلقى فى النيل يوم الاحتفال
بعيد حابى فى بداية الانقلاب الصيفى ويؤتى لها بجديد غيرها فى تلك.

المحارب ، الى أن يحل العيد بعد عام فتلقى في النهر قبيل فيضانه ، ثم
يؤتى في المحارب بتمائيل جديدة في كل عام .

ترى نهل استمد الخيال قصة عروس النيل من هذه التماثيل التي
كانت تلقى في النهر فنفع الحياة في خشب الجميز وفي غيره من المواد التي
كانت تصنع التماثيل منها ؟ وهل الاله « ربيت » زوجة النيل هي التي
أمدت الخيال بفكرة العروس العذراء النابضة بالحياة ؟ أيا كان الامر فالقصة
كما نرى أسطورة من أولها الى آخرها زينها الوهم ، ثم خلع القدم على
الوهم صورة الحقيقة (١) . حتى الشاعر أحمد شوقي سايرها قائلا :

في كل عام درة تلقى بلا ثمن اليك وحره لا تصدق
حول تسائل فيه كل نجبية سبقت اليك متى تحول فتلق
والمجد عند الغانيات رغبة يبغى كما يبغى الجمال ويعشق
زفت الى ملك الملوك يحثها دين ويدفعها هوى وتشوق
ألق اليك بنفسها ونفيسها وأتتك شيقة حواها شيق
خلعت عليك حياها وحياتها ألعز من هذين شيء ينق
واذا تناهى الحب واتفق القدى فالروح في باب الضحية أليق

والخطورة في موسيقية شوقي وعبقورية أداء أم كلثوم كصوتها في
هذه القصيدة التي ترسم غناء وكلمات ، لوحة ملونة تضح بالحياة
وهي أسطورة .

لم يعد للوفاء احتفال :

من يصدق أننا أبطلنا الاحتفال بالنيل حين استحدثنا احتفالات
بمناسبات لا تشائيه أو حتى تدانيه . . احتفالات لا يحس بها الوجدان
المصرى ولا يشارك فيها عن انفعال حقيقي أو رغبة صادقة أو عاطفة
حميمة . . ويرى النيل هذا الجحود ويمضى في سيره . . في كبرياء الواثق
من نفسه ، الشاعر بقيمته فإذا بالمناسبات المصنوعة تختفي أو تبطل ويظل
النيل . النيل الذي تغنى به حتى الغزاة تغنى به شاعر الرومان (فرجيل)
وأشار اليه في ملحمة (الاينيدا) وتغنى به من شعراء الانجسليز :
« شلي » و « كيتس » و « لى هنت » .

(١) التفاصيل في كتاب (النيل في الأدب المصرى) للدكتورة نعام أحمد فؤاد .

وصلت من أجل زيادته الكنيسة المصرية . ما تسميه « أوشية المياه » التي ترددها بدءا من ثانی عشر من شهر بوثة الى التاسع عشر من شهر بابہ مما يضمه كتاب الخولاجى المقدس . وفى كتاب (دلال أسبوع الآلام) دعاء موصول من أجل النيل وأن يفرج به وجه الأرض . وعيد الشهيد وعيد الغطاس المسيحيان انما هما احتفالان نيليان .

كما صور القرآن الكريم ، النيل ، مسرحا لحوادث التاريخ ورسالات الأنبياء بما رواه من أخبار موسى والحضر على صفحته أو فى واديه .

وصوره شغل المصريين الشاغل من خلال حلم العزيز وتفسير يوسف له وما ترتب على الحلم من أحداث . وقد جاء فى المقرئى فى باب « ذكر مقاييس النيل وزيادته » ان بعض المفسرين قالوا : (ان يوم الزينة هو يوم وفاء النيل . ومن هؤلاء النويرى ويميل الى هذا الرأى الأستاذ عبد الوهاب النجار فى حديثه عن قصص الأنبياء .

واحتفل الفاطميون بكسر الخليج ولهج الشعب بالنيل فى الأغنية والموال والقصة والحدوة والمثل والفزورة وقد جمع ماسبيرو ، بل واليونسكو ، الكثير من هذا الفيض .

كان عيد الفيضان عيدا فى كل قلب مصرى يستوى فى هذا العلماء والبسطاء فهل يعود هذا العيد وفاء للنيل ؟ (١) الذى يصدق الاحتفال به :

لى فيك مدح ليس فيه تكلف املاه حب ليس فيه تملق
عما يحملنا الهوى لك أفرخ سنطير عنها وهى عندك ترزق

(١) ناديت سنة ٨٥ على صفحة « الأهرام » بعودة الاحتفال بوفاء النيل . وقد استجابت محافظة القاهرة وجرت مراسيم الاحتفال فى سبتمبر سنة ١٩٨٥ .

القاهرة بين الأمس واليوم

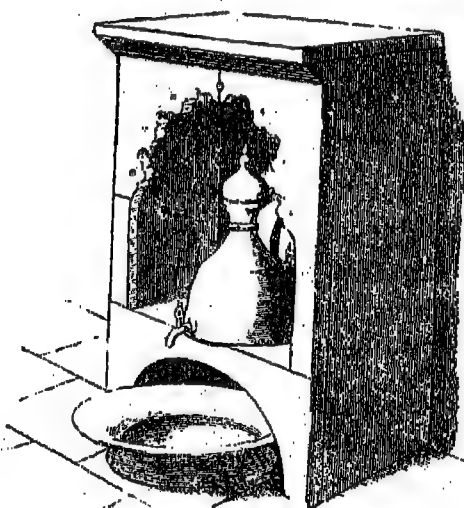
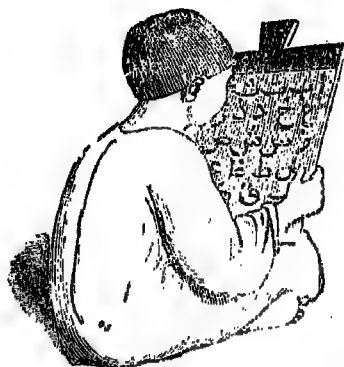
صور غابت عن القاهرة :

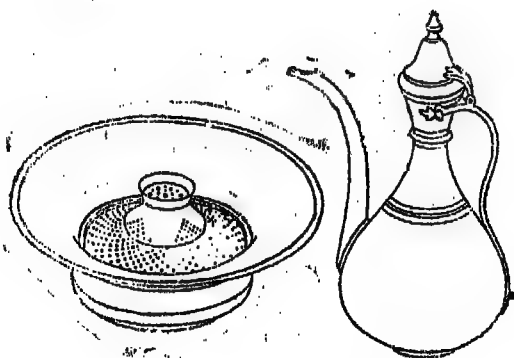
القاهرة الكبرى التي تروع العين بضخامتها وإبعادها .. القاهرة الكبرى هذه دخلت كلها كلها فى كيانى الصغير .. أيام عمرى خيوط منسوجة من معالمها .. من أحيائها .. من لغتها ذات اللهجة العذبة .. من أغانيها .. من أفراحها من أتراحها .. من فنونها .. من علومها .. من صناعاتها وحرفها من بدائعها من روائعها .. جوايا حبيبتنا القاهرة .. داخل .. فى دمي .

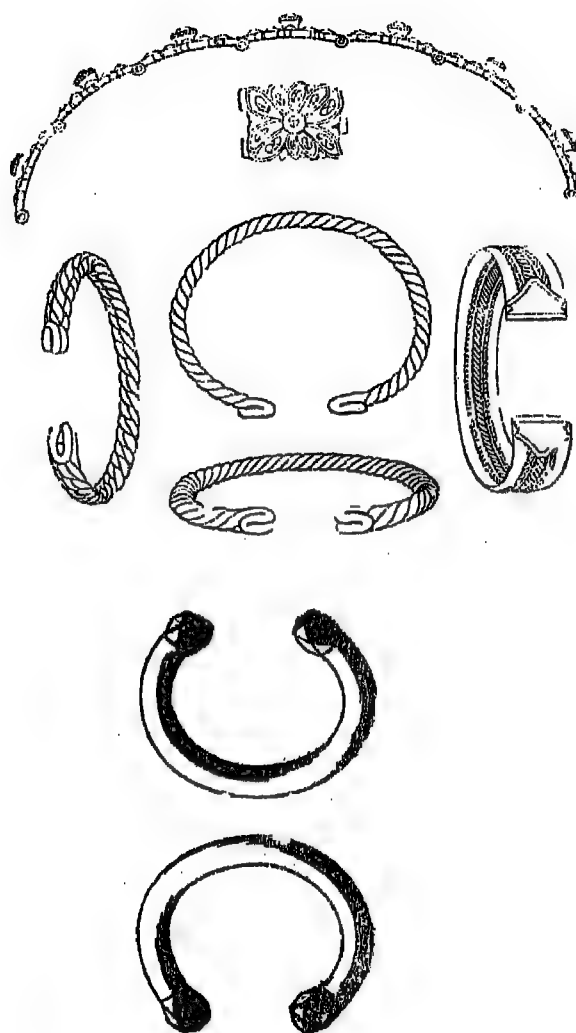
أقول هذا الآن بعد أن وعيت ولكنى قبل الدراسة أحسه بفطرتى .. كنت أهدأ بعد حركة أمام كل ظاهرة .. أمام كل صانع : الفطاطرى وهو يدحو العجينة ويديرها بحركة خاصة بيده دوائر تتسع مع كل مرة . وأكبر وأقرأ شعر ابن الرومى فى صانع الرقاق فلا يأخذ حفظ شعره مجهودا منى .. انى أعرف الصورة حقيقة ملموسة . وفى حى الخيمية أكاد أحبس أنفاسى وأنا أرى الأصابع المدربة تنمنم وترسم بالقماش والألوان .. ما نراه على تروك الفراشة باصطلاح المهنة . ومن العجيب أن الرسم ، المفروض ، اسلامى ويستعمل فى مناسبات اسلامية ولكنه قائم على اللوتس . أسير والقلب مشغوف بالرؤية .. فى روحى ظلما ملهوف على معرفة ما تراه العين وما أكثر ما يرى ويتراءى فى القاهرة .

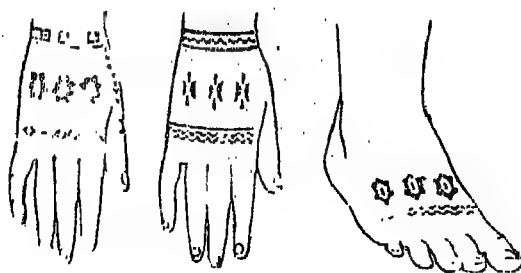
انها فى باب الحرف وحدها التى كانت تحيط بى فى القاهرة الشعبية حشد حاشد ، لقد عد على باشا مبارك فى خطه ١٩٨ حرفة ووصف التقاليد الجميلة التى كانت تحكم أهل هذه الحرف وتسود أوساطهم .. وقد ظلت هذه التقاليد التى تدل على أصالة وحضارة وأصول

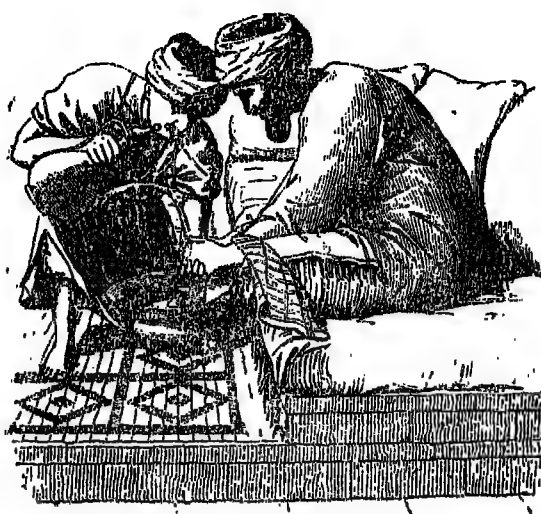














الى النصف الاول من القرن العشرين ووعينا فى الخمسينات طرفا منها
ولهذا أقف عندها تحية للقاهرة مدينة البناء والانشاء والفنون والعلوم
والصناعات والحرف .

يقول صاحب الخطط التوفيقية :

(لكل طائفة شيخ ومخاترة ونقباء وأسماءهم مقيدة فى المحافظة
الدائرة البلدية وكان كل من أراد أن يصير معلما فى صناعته لا يتمكن
من ذلك الا بعد مهارته فيها بعمل شئ دقيق وخذوا بالكم من «دقيق» هذه
فى صناعته يشهد له بأنه يستحق أن يكون معلما . . والاسطاوية حينئذ
لا ينالها الا بعد أن يشهد له معلميه وباقي المعلمين من صناعته ويخبرون
شيخ الطائفة بذلك فيحضره ويختبره فان وجدته أهلا لأن يكون معلما قلده
اياها . . أعزائي القراء أحسبكم مثلى تغالبسون الابتسام . أو تكونون
الاحترام لهؤلاء المعلمين والمعلمين . . الذين يصدقون مع أنفسهم ومع
تلاميذهم ومع وطنهم فلا يحسبون عليه جاهلا يجيزونه .

ومن الطريف أنه كما يقول على باشا مبارك أنه حتى طائفة الصرمانية
والمزينين والحمامية كانت لا تزاول مهنتها الا بعد امتحان حقيقى على مراحل
تمثلها عقد ثلاث فالعقدة الاولى تسمى الاسطاوية ويحلها لطالب المهنة ،
معلمه الذى رباه وعلمه الصنعة ، والثانية تسمى الرتبة ويحلها شيخ
الطائفة والثالثة يحلها أحد الاسطوات الموجودين بالمجلس . وهكذا بقية
الطوائف من نجارين ونحاتين ونقاشين وهرخمتية .

ماذا نرى الآن ؟ آلاف الأيدي المدربة الماهرة هاجرت الهجرة المؤقتة
أو الدائمة الى البلاد العربية والأجنبية . والباقيون يرفضون الصبيان
أمام الزام قانون التأمينات الاجتماعية بالتأمين على الصبية من أى عمر ،
فى تعميم . فحدثت الفجوة التى امتدت نحو عشرين عاما والتى عانىنا
منها كثيرا سواء فى العمالة أو ردود الفعل الأخرى من اصطبياد هؤلاء
الأولاد فى ألوان الجرائم المختلفة . ونحمد الله أن تعدل حديثا قانون
التأمينات فاقتصر التأمين على من يزيد سنهم عن ثمانية عشر عاما .

على أن معلم الصنعة اليوم أو الصبيان ، تحت ضغط العصر اللاهث
وطابع الكسب السريع ، لا يبدلون الجهد القديم أو يحافظون على تقاليد
الصنعة . غدت المسألة فهلوة .

وتبلغ الدقة بأهل القاهرة أنهم يقسمون داخل الحرفة الواحدة
فطائفة النجارين تقسمهم القاهرة الى :

نجارى طواحين - نجارى سواقى - نجارين دقى - نجارى مراكب -
نجارى عربات •

وانظر الآن الى حبيبتنا القاهرة فى الزحام فأرى أشياء وتغيب
أخرى • وتوحشنى القاهرة وأنا فيها •• كيف ؟ لا أدرى •

تحدثت عن حرف القاهرة التى شاهدها صغيرة والتى لحقها تغير
كبير الآن •• لقد غدوت أفتقد اليوم ، صورا قد يعدها البعض بدائية
أو متخلفة ولكنها حبيبة بما هى جزء من القاهرة وجزء من أيامى الأولى
فيها •• بنت البلد بملأها اللف وجسمها الملفوف المشوف •• كشراع
المركب فى النيل •• أو كما يقول بيرم : بنت البلد فى الملاية اللف
ياولد ياولد •• بنت البلد تركت الملاية اللف وأصبحنا نجد فى الأحياء
الشعبية عدة صالونات تجميل •• بنت البلد بعد الملاية اللف تسرح
شعرها عند الكوافير لأنها تعمل •• وهى بحكم العمل وبيئته الجديدة ،
تحرص على مظهرها بقدر ما تطيق حالتها المادية ولو كانت عاملة فى
مصنع •

بائع العرقسوس :

وكان يمشى فى مهرجان تسبقه نغمات طاساته وائاء العرقسوس
على الرغم من حجمه وامتلائه يجعل له صدره مهادا ووسادا ويمشى يتعاجب
واذا صب فى الأكواب يباعه بين الكوب فى يده وبين البزبوز وينزل
العرقسوس صانعا بدوره رغبة فى أعلى الكوب •

ونحب نحن أطفال القاهرة العرقسوس ، ويحب الرجل حرفته
ويترجم حبه نظافة وشفافية ومعاملة دمه وتقدير حسن فيترنم صوته
على الرغم من ارتفاع طبقة بكلمة : شفا أى شفاء ••• ان عرقسوسه
شراب وشفاء •

وباعة القاهرة المتجولون يتغنون بسلهم • ان الانسان المصرى
أنيس لطيف يحب الغناء ويطرب للسماع فالمشمش عنب وعناب وهدية
للأحباب والبلح لا تبين ولا عنب زيك يا رطب ، والموز صوايح الست
والكمثرى قناني العسل وفتافيت السكر حتى الفجل ريان ورور •• كل
شئ تدلله القاهرة ذات الدلال •

ومن الصور التى تعلق بها صغيرة وأفتقدها الآن : السقا • هذا
الانسان البسيط كان يشعر أنه رسول النيل الى البيوت • انه يحمل
الماء حياة وشفاء وهناء •

وتحل حنفية ست سنينة محله ولكنها لا تخلف فى فنون الأدب
والرسم ما خلفه السقا من روايات ولوحات •

ومن الصور التى اختفت من القاهرة « القراقوز » وطالما افتقدتنى
جدتى وأكون مستغرقة فى متابعة الأراجوز • يقول الدكتور أحمد أمين
(شخصية قراقوز محبوبة جدا عند المصريين وخصوصا الاطفال فهى
أشبه ما تكون « بميكى ماوس » •

رأيت أنا فى طفولتى الأراجوز واليوم أطفال المصريين جميعا يتمتعون
(بميكى ماوس) فى المجلات وعلى شاشة السينما داعين للفنان العظيم ..
« والت ديزنى » •

اختفى بائع الزبادى المتجول بطواجن الفخار الصغيرة وصينيته
المغطاة بغطاء كالقبة شفاف أبيض وبداخله شمعة أو لمبة سهارى ينعكس
نورها ويعطيه شكلا حالما • وصاحب اللبن الزبادى أو الحليب ينادى
« قشطة » • فاذا كان الوقت صباحا ، زاد : نهارنا أبيض ..

الحضارة ذوق والدوق مافاتش باب النصر .. مافاتش القاهرة ..
مافاتش مصر •

الآن الزبادى فى علب كرتون منزوع القشدة .. والحليب بودة
فى علب صفيح نسبة الدسم فيه ٦٪ أو أقل •

اختفت الماكينة والفونوغراف وحل محلها الراديو والريكوردر كما
حلت محلات العصير محل بائع العرقسوس •

اختفى الزار وحل محله السامبا والرومبا .. وهذا اللون من الرقص
صور من الزار وراءه أعصاب مشدودة ونفوس مكدودة وقلق يتنفس
أو يغرق نفسه فى الصخب •

اختفى النحاس طشوتا وآنية وحل محله الألمنيوم فالتيفال الذى
أثبت البحث العلمى ضرره .. وكالعادة تتخلص أوروبا مما يكشف العلم
ضرره ونظّل نحن سادريين فيه .. تماما كاقمشة النايلون التى ثبت
ضررها حين تأكدت قيمة أقمشتنا القطنية خاصة فى جونا الحار •

ليس هذا فقط .. الصور تتابع أمام عيني من ماضى وحاضر
حبيبتنا القاهرة •

(١) من أجمل ما كتب الأستاذ يوسف السباعى روايته (السقامات) •

ومن الصور التي اختفت زما من القاهرة : « بيت العائلة » ..
أصبح الأبناء مستقل كل منهم ببيت .. أقصد شقة ثم عاد من جديد
تحت ضغط الكثافة السكانية وأزمة المساكن ، بيت العائلة ولكن مع
الفرق .. كان السكن في بيت العائلة ، ومعها ، عن عاطفة .. ولكنه
غدا الآن عن اضطرار .

ومن الصور التي اختفت من القاهرة موكب الجهاز .. جهاز العروس
وكان أهلها يحملونه على عدة عربات مكشوفة تتقدمها موسيقى القرب أو
موسيقى وترية وفي الحقيقة أن الجهاز لا يحتاج هذا العدد من العربات
التي يحمل عليها للاستعراض ولكننا من طبعنا التهويل أو التهوين .

وبمناسبة الجهاز بطلت موضحة العوالم وكان أصحاب الفرح
يسعون اليهن في شارع محمد على ويتفقون معهن ويتبارون ليلة الفرح
في رش النقود اليهن وكانت لهؤلاء العوالم أغان خاصة بهن لهن لغة
خاصة بهن وهي لغة السيم التي قص منها أطرافا الأستاذ توفيق الحكيم
في كتابه (عوالم الفرح) هذا الكتاب الذي أهده بدون أدنى حرج أو
تخرج الى إحدى هؤلاء العوالم قائلا : (الى الأسطى حميدة الاسكندرانية
أول من علمنى كلمة الفن) .

ومضى في هذا الكتاب يصفهن : هيئتهن .. حديثهن .. ملابسهن
، وخاصة الصفا البراق على الشعر ، والمنديل الترتير في مقدم الرأس ولغة
السيم وهي العملة الخاصة بهن فمثلا اطسا معناها أسطى فعندما تنحدر
الملاية عن رأس الأسطى حميدة ويظهر شعرها يزينه الصفا البراق وتلتهم
عيون الرجال الأسطى حميدة تسرع راقصة الفرقة الى تنبيهها مخاطبة
اياها بالسيم أو اللغة الاصطلاحية بين العوالم كما يسميها الأستاذ
توفيق الحكيم :

اطسا .. يا اطسا .. أفصك نايب أى اسطى يا اسطى صفاك
باين .

وهكذا بدون مدرسة وحصى نحسو ، برع العوالم في الاعلال
والإبدال الذي كان مدرسو النحو يحشرونه في ردوسنا ، حشرا أشقانا ،
وأشقاهم أكثر ، هؤلاء الفدائيين .

ومن الصور التي ذهبت من القاهرة وحل محلها غيرها ..

المحمل :

وقد رأيت المحمل في طفولتى ، المحمل ، مرة واحدة لم تخلف في
ذهنى منه الا بريقه والجمل الذى يحمله . وقد كان مشهدا يشد الناس .

ولما كبرت فهمت قول جدتى فى المدح (جمل المحامل) فالجمل فى حد ذاته يتمتع بصفات طيبة منها الصبر والكبرياء أيضا ٠٠ فأن يكون أيضا جمل محامل أى جملا مختارا لغرض تحفه البركة فهو شئ يستحق ٠٠ وأستاذنا الدكتور أحمد أمين يصف المحمل وصف شاهد عيان فهو إطار مربع من الخشب ، هرمى القمة له ستر من الديداج الأحمر وعليه زخارف وكتابة مطرزة تطريزا فاخرا بالذهب على أرضية من الحرير الأخضر أو الأحمر . وله قماقم أربعة من الفضة المطلية بالذهب ، وينتهى هذا الكساء بشراريب تعلوها كرات فضية يتفرع منها سلوك دقيقة والناس يتبركون بالمحمل ويلمس الكسوة ويقبلون شراريبها .

ويحمل المحمل جمل ضخيم يتمتع أيضا بما يتمتع به المحمل من تبرك به واعفائه من العمل بقية السنة ٠٠ أى جمل عمده أو كما تقول جدتى جمل المحامل وكان احتفال القاهرة بالمحمل ويجرى مرتين فى العام مرة عند طلوع الناس إلى الحج ومرة عند عودتهم منه . وهو يؤثر فى الجماهير عواطف قوية شديدة نحو الحج .

ومن الصور التى اختفت أو على الأقل تراجعت إلى زوايا منسية : الزار . وقد وصف الزار ، أستاذنا الدكتور أحمد أمين فى كتابه الشيق (قاموس العادات والتقاليد والتعبير المصرية وصفا مفصلا وما يتبعه من كدية) : وكرسى الزار ألوان حسب الأسياد واللون المناسب لكل منهم ودقات الدفوف .

ومن الصور التى اختفت من القاهرة « الحنطور » وأحسب أن وراء اختفائه عاملين : الأول العصر اللاهث الذى لم يعد فيه مكان للتخاطر على أنغام خيل كلبها حنية كما يقول مطربنا كارم محمود ٠٠ والعامل الثانى الزحام ثم انتشار وسائل المواصلات الحديثة والسريعة على المستوى العام والخاص ووجود الصناعات الكثيرة وأبواب الكسب المضمون .

ولكنى لا أنسى الحنطور صغيرة ، فقد كنت أجد فى ركوبه متعة ورخاء الاسترخاء ؛ ولا أنسى الحنطور كبيرة، فقد درست شعر أمير الشعراء شوقي . وحياته ، وللحنطور فيها قصة . هذه العربة المدرجة ذات الكنبتين المتقابلتين الصغيرة منهما مكشوفة لأن الكبود كان يغطى الكنبه الكبيرة وكنت على كل حال أختار الجلوس على الكنبه الصغيرة لأرى الشارع والناس أكثر . أما مقعد الأسطى السائق فقد كان مرتفعا يطل على جوز الحيل ويمسك فى يده كرباجا طويلا . وفى الخلف يتسلق أو يتشعلق الصبية الذين يلعبون أو يملكون فى الشارع فإذا فات أحدهم متعة اللحاق بالحنطور والتعلق به من الخلف وشعر أن رفيقه أحسن منه حظا ، صاح من غيظه (كرباج ورا ياسطى) فيعرف الأسطى ما حدث من وراء ظهره ويتحرك

كرباجه يحسم الامر ولكن الصبى يكون قد فر هاربا وقد كان هذا الأسطى وزملاءه أولاد بلد « يفهوها وهى طايره » - طبعا الصواب يفهمونها ولكنى أعنى المنطوق الشعبى فى هذا الموضع - وكأنهم فى مجلسهم المرتفع يرون أكثر ٠٠ بل كانوا يرون بظهورهم فقد كانوا يفهمون نوعية الركاب بالحدافة والاحبة منهم خاصة فيلبون طلباتهم وهم يبتسمون (على راسى ياهانم وعنيه) .

ما حيلتى فى حبيبتي القاهرة ، وذكرها يفجر فى ينابيع دفاقة .
انها القاهرة .

لقد ولد الحنطور قصائد كاملة من ديوان شوقى من أعذبها وأقربها الى القلب المصرى ، قصيدة النيل . فقد كان يحلو له ، وبينه الذى سماه (كرمه ابن هانى) على النيل أن يتنزه فى الأصائل على شاطئ النيل فى حنطور ٠٠ ويتأمل الشاعر المترف النهر المترف وكان النيل مترفا على أيامه لا يكدر صفوه أو يرنق نقاهه ما يحدث له هذه الأيام مما نرتكبه فى حقه وهو موضوع طويل .

وفى هذه السبجات بدا النيل فى عين شوقى ، وما جاوز الصواب ، بدا النيل الطاعم الكاسى الصانع الفنان ٠٠ رأى النيل بحرا بالكارام زاخرا عذب المشارع مده لا يلحق وهو كعبة القصاد ، يحجج اليه الورد بين قاص مفتون بشطيه ودان يرمى ، ويهمس شوقى مفتونا :

من أى عهد فى القرى تـسـدفق وبأى كف فى المدائن تغدق
ومن السماء نزلت أم فجرت من عليا الجنان جداول ولا تترقق
وبأى عين أم بأية مزنة أم أى طوفان تفيض وتفهق
وبأى نول أنت ناسج بردة للضفتين جديدها لا يخلق
حتى اذا انتهت دهشة الاعجاب أو اعجاب الحماسة ، شرع فى
الوصف :

فى كل آونة تبدل صبغة عجبا وأنت الصابغ المتأنق
أنت الدهور عليك ، مهدك مترع وحياضك الشرق الشهية دفق
تسقى وتطعم لا اناؤك ضائق بالواردين ولا خوانك ينفق
والماء تسكبه فيسبك عسجدا والأرض تفرقها فيحيا المغرق

ويمر الشريط الطويل أمام شوقى فيذكر حيرة الانسانية طويلا فى الوصول الى منابعه واقتنان قدماء المصريين به الذين قالوا فيه فى بساطة ناسر مما ترجمه ارمان (انك أعظم من البحر . حقا انه منبع اللؤلؤ

والمرجان ولكنك تنبت الشعير ومادام الناس لا يأكلون الجواهر الخ
فالشعير أحسن) • ويتلمس شوقي لهم العذر في اعزازه من اعجازه
فيقول :

دين الأوائل فيك دين مروءة لم لا يؤله من يقوت ويرزق
دانوا ببحر بالمكارم زاخر عذب المشارع مده لا يلحق

اعذروهم لأنهم :

دانوا ببحر بالمكارم زاخر عذب المشارع مده لا يلحق
متقيده بعهوده ووعدوده يجرى على سنن الوفاء ويصدق
يتقبل الوادى الحياة كريمة من راحتك عمية تتدفق
ثم انتقل الحنطور بشوقي الى ناحية أخرى من الجزيرة وانتقل شوقي
الى دفقة أخرى من القصيدة • استعرض موكب الغزاة ولكنهم كلهم راحوا
• انداحوا وبقي النيل •

بقيت أنت يا نيل • تتواصل الحضارة على أرضك وتتراسل
العطايا من فيضك حتى بعد أن ينتقل الحكم الى غيرك فاذا بالذى انتقل
الصولجان لا الهيلمان والحكم لا الحكمة •

ويعنى شوقي اللحن الختامى فى القصيدة وهو ختام لهذه
الصفحات :

يأنيل أنت بطيب مانعت الهدى	وبمودة التوراة أخرى أخلق
أصل الحضارة فى صعيدك ثابت	ونباتها حسن عليك مخلق
ولدت فكنت المهد ثم ترعرعت	فأظله منك الحفى المشفق
ملأت ديارك حكمة مأثورها	فى الصخر والبردى الكريم منمق
وبنت بيوت العلم بأذخه الذرى	يسعى لهن مغرب ومشرق
واليك يهدى الحمد خلق حازهم	كنف على مر الدهور مرهق
يبنون لك الكنانة بالقنا	والله من حول البناء موفق

وكم من قصائد وأغان وأناشيد لهجت به وترنمت ولا تزال تحلو
على التردد لأنها صادقة لا شبهة فيها من رياء أو افتعال ••

لى فيك مدح ليس فيه تكلف	أملأه حب ليس فيه تملق
مما يحملنا الهوى لك أفرخ	سنطير عنها وهى عندك ترزق
تهفو اليهم فى التراب قلوبنا	وتكاد فيه بغير عرق تخفق
فاحفظ ودائعك التى استودعتها	أنت الوفى اذا أوتمنت الاصدق •

شقة للايجار :

لم ينته بعد حديث الصور التي غابت عن القاهرة •
ومن هذه الصور ، لافتة صغيرة كنت فى طفولتى أراها كثيرا تتدلى
من النوافذ والشرفات - فى سائر البيوت تقريبا • هذه اللافتة تقول
(شقة للايجار) •

كانت الشقق الخالية كثيرة فى القاهرة ففى احصاء الجهاز المركزى
للتعبئة العامة والاحصاء عن التعداد العام للسكن والاسكان سنة ١٩٧٦
أن مصر كلها كانت مثلا فى أوائل القرن العشرين عشرة ملايين وفى سنة
١٩٥٢ عشرين مليوناً • طبعا قفز هذا الرقم سنة ١٩٧٦ الى ٣٦٦٢٦١٠٤
أما التعداد الرسمى (١) بالقاهرة سنة ١٩٠٧ فكان ٦٦٠٠٠ فلو
تضاعف هذا الرقم الى ثلاثة أمثاله فى الخمسينات لما تجاوز المليون
تذكروا هذا الرقم أعزائى القراء واذكروا أن تعداد القاهرة اليوم ١٢ مليوناً
لتعرفوا أن حبيبتنا القاهرة تحتل الكثير واننا نرهقها من أمرها عسرا ••
حتى حين تمسها يد الإصلاح نفسه يزداد عذابها سوءا لأنه يشكل عامل
جذب إليها طالما الريف تعيشا مهملا متخلفا يزهد أهله فيه فيخلفونه الى
القاهرة حيث العلاج والوان التعليم (والوان المناعم أيضا •• وتكون
المحصلة الأخيرة تريف القاهرة بدلا من تحضير الريف • ويتفاقم الوضع
يوما بعد يوم طالما نجتزىء بالمسكنات فى حل مشاكلنا لم نرتق بعد الى
الدراسات الشاملة البعيدة المدى والرؤية الثابتة غير المتأثرة بتغير الوزارة
ولعبة الكراسى الموسيقية •

أعود الى اللافتة التى لا أنساها « شقة للايجار » كانت جدتى تقلق
إذا مر على هذه اللافتة أسبوعان فإذا استمرت الحال وامتد الاسبوعان
وصارا شهرين مثلا ، ضاقت بالا ؟ وهنا تسرع فى اطلاق البخور فى صلاة
الجمعة فى الشقة الخالية حتى يفك الله عقدها وأفهم عنها ، من حبى لها
حتى ما يدور بخلدتها ولو لم تقله بالحروف • فإذا صادق أثناء لعبى أو
صعودى ونزولى الذى لا يهدأ ان وجدت مستأجرا يسأل عن الشقة ، عدوت
مسرعة أنهب السلم نهبا لازف إليها البشرى • وإذا حدث وتم الاتفاق
فإنها تضم هذا الحادث وليد الصدفة البحتة والمرهون قبلا بإرادة الله
قبل كل شيء ، الى يمن طالعى فى نظرها ، وما لى فضل فيه •

وما كان أسعدها عندما كبرت وزاد قسطى من التعليم ، أن أكتب لها
عقود الايجار وايصالات السكان • وتبدأ تسألنى فى كل كبيرة وصغيرة
كانى جهينة عندى الخبر اليقين •

وهكذا عرفت صغيرة معنى المقولة (حسن في كل عين ما تود) أو معنى البيت :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

عفريت الليل ، الحمام :

تحدثت عن صورة اختفت من القاهرة هي حلم ذهبي الآن للكثيرين من الشباب أو العائدين من الخارج ، أو من تضيق بهم مساكنهم الحالية ، صورة شقة للايجار .

واليوم أتحدث عن صورة أخرى من الصور التي اختفت من القاهرة التي رعت نشأتى .. صورة طريفة .

أتحدث عن عفريت الليل :

كانت القاهرة اذا حل المساء يمر رجل نوبى نحيل الخطوة سريع العدو .. هذا الرجل عمله أن يضيء فوانيس الشوارع .. ولما كانت الفوانيس كثيرة فانه لكى يفرغ منها ، قبل أن يحل الليل كان بمجرد أن يفرغ من اضاءة فانوس ، يهرع الى النى يليه ويضيئه . وتكرر العملية وأطفال الحي العفاريث يصيحون : عفريت الليل بسبع رجلين .

ومن الصور المصرية التي اختفت من القاهرة الحمام . لقد استرعت الحمامات العامة بالقاهرة أنظار الرحالة والسائحين شرقيين وغربيين . فعبد الظاهر فى كتابه « قطف الأزهار » يذكر أن عدد الحمامات سنة ٦٧٥ ثمانون حماما والقاضى القضاعى يقول أنه كان فى الفسطاط (١١٧٠) حماما وان كان على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية يرى فى هذا الرقم مبالغة ، أما الفرنسيون فى خططهم فقد سجلوا أن عدد الحمامات بالطبع فى زمن الحملة تزيد على المائة . وقد أورد المؤرخ الفرنسى « أندريه ريمون » قائمة بحمامات القاهرة عند نهاية القرن الثامن عشر (١) فإذا بها قد بلغت سبعة وسبعين حماما .

وغير ، أندريه ، « جومار » و « بوتى » .. ومنا : على باشا مبارك .

كما التفت كتاب (وصف مصر) الى حمامات القاهرة .

وكانت طائفة « الحمامية » تستن لها عادات خاصة وهى (فى تنظيمها الداخلى لا تختلف فى شىء عن بقية الطوائف)

(١) مجموعة دراساته ضمنها كتاب ترجمة الاستاذ زهير الشايب بعنوان : (فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية) .

هذه الأرقام على تفاوتها تكشف عدد الحمامات التي فقدناها اذا عرفنا انه لم يتبق في القاهرة ، ولها الا بضعة حمامات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة !!

كانت جدتي تحميني يوميا قبل النوم ونظريتها أنه بعد لعب النهار وشقاوة العيال تعطيني حماما ليزول عني التعب أى عناء الراحة .. وأنام في ثياب أخرى نظيفة أو كما تقول تشف وتترف .

ولكنى مع هذا الحمام اليومي ، كنت أفرح بيوم الحمام الخارجى أى الأسبوعى بينما يقول الدكتور أحمد أمين أنه كان يكره الذهاب مع أبيه الى الحمام .

الحمام العام « كانت جدتي تسميه تاره « الحمام الأسبوعى » وطورا « الحمام التركى » لأنه يشمل التكييس وحمام البخار بالنسبة لها على الأقل .

وكان الحمام العام مكانا واسعا كبيرا شرحا . وبالطبع كنت أجد فيه فرصة للقفز واللوثب والفضول أيضا أو الجديد في باب الاستحمام .

ويبدو أننى كنت أبذل مجهودا كبيرا لأننى في كل مرة لا أكاد أصل الى البيت حتى أستغرق في نوم عميق .. فاذا استيقظت ، تهللت جدتي قائلة « نوم العافية » كما كانت تقول لى بعد الحمام « حمام العافية » .

ونسيت أن أقول أن الحمام العام كان يتبعه مكان وقود لتسخين الماء يسمى المستوقد .. وكانت توضع فيه قدور الفول التي يأتى بها أصحابها من الباعة للتدريس .

وقد اختفت الحمامات العامة بمستوقداتها ولكن الفول المدمس ظل أكلتنا الشعبية المفضلة حتى لنقول « من فاته الفول فاته الفطور » .

أقوال يومية :

ونحن المصريين بعاطفتنا الشديدة لنا عبارات دعائية كثيرة في حياتنا اليومية . فمن يشرب نقول له : هنيا ومن يأكل نقول : بالهنأ والشفا ومن يستحم أو ينام نقول له حمام العافية ونوم العافية ومن يعطس نقول له رحمكم الله فيرد العاطس : غفر الله لى ولك ، ومن يحج نقول له « حج مبرور » والقادم نقول له : « حمد الله على السلامة » ومن يزور نقول له : « أهلا وسهلا » وبعد الزيارة نقول له : « آنست وشرقت » وما يسوء نقول : « لا حول ولا قوة الا بالله » ، وما يسر نقول : « ما شاء الله » .. ومن

يقص يطلب في البداية الصلاة على النبي . . ومن يغنى ينادى الليل في عملية تجميع نفسه للغناء وتهيته السامعين . كل شيء له عندنا تعليق حتى من يقضى حاجته نقول له : شفيتم .

وهي تعليقات طريفة ولكنها تلفت نظر الغرباء خاصة الغربيين لا سيما حين نزيدها حبتين .

وقد اختفت صور كثيرة كما رأينا من القاهرة ولكن هذه التعليقات لم تختف بل تعيش في مجتمعنا مرعية الجانب باعتبارها « الأصول » كما تسميها من الشعب المصري .

فلها على لسانه مذاق خاص ونكهة معينة على طول عهده بالحضارة والعراقة والأصالة وبعض هذه العبارات نتوسع فيها مثل قولنا للغائب بعد طول غياب : خطوة عزيزة . . زارنا النبي .

هذه الخطوة تعدد بعد هذا فتصير خطوات أى نسير بها فى طريق طويل من الأقوال . فنكنى بالخطوة عن المسافة القصيرة كما تقول أغنية « بعيد عنك حياتى عذاب » بينى وبينك خطوات تعبيراً عن القرب والوداد . . هذا بين المحبين من باب الكناية وهى على الحقيقة تعنى أيضاً قصر المسافة وينظم اليها عبارة « فركة كعب » .

وينتقل التعبير الى ساحة الوجدان الدينى فنقول : (بين الخطوة والخطوة يفعل الله ما يريد) ما تمشيح خطوة على خطوة الا باذن الله . وينتقل التعبير أيضاً الى دنيا القصص والاساطير فتحدث الجدات جميعاً عن أهل الخطوة فأبو خطوة انسان مبروك له كرامات يطوى المسافات حتى ليصل فرضاً فى بلد ويصل الفرض التالى فى بلد آخر . وكلنا نفعل هذا الآن بل اننا ننتقل فى اليوم الواحد من قارة الى أخرى لا بلدة فحسب ولكن الانتقال السريع قبل شيوع استعمال الطائرات كان من الكرامات .

وفى حياتنا يقابل هذه العبارات التى تقال من باب الأدب والذوق والواجب فى اصطناع الجدية يقابلها على الطرف الآخر عبارات فيها تفكه ودعابة بل ساخرة تزيد الضحك ضحكاً . والقاهريون بل أهل مصر جميعاً مشهورون بالقافية . تشيع فى كلامهم حتى أنهم فى الجد ينيهون عليه من باب الاحتراس فيقولون : بلا قافية يريدون أن المسألة ليست مزاحاً بل جد فى جد .

وتشيع القافية حتى غدت لكل حرفة قافية فقافية للمزينين وقافية للزحوا وقافية للأتراك وقافية للعب وقافية للساعة .

فيقول ظرفاء القاهرة في باب النحو :

راسك : اشمعنى
مبنية على الكسر
كيسك : اشمعنى
ممنوع من الصرف

ويقول الظرفاء في باب الساعة :

عيشتك : اشمعنى
مافيهاش تقديم •
الخبرات عن بيتكم :
ممسوحة •
صنعتك : اشمعنى
رقاص

ومن قافية الهندسة :

أكثر نومك : اشمعنى
فى الزاوية

هذا فى العامية حتى تكلم المصريون العربية وأصبحت لغة الكتابة
ولغة الحديث ، لعبوا فيها على الألفاظ • كانت العربية فى باب البديع على
المشاركة مجتمعين تسعة وعشرون نوعا فوصلت بها مصر على يد أبى
الاصبح الى بضعة وعشرين فوق المائة ا عشرين منها من ابتكارها وبعض
ما ابتكرته مصر وأشاعته فى الأدب العربى شعره ونثره (فن التورية)
ولا أحسب غير مصر قادرا على التورية واللعب باللفظ فى براعة وغندرة
بكل هذا الظرف والركة اللذين أشاعهما ابن نباتة فى بيتيه وقد أهدس اليه
صديق تمرا رديثا •

أهديت تمرا بل نوى فقبلته بيد الوداد فما عليك عتاب
واذا تباعدت الجسوم فودنا باق ونحن على النوى أحباب
كموج البحر الأشياء والناس فى القاهرة موجة غادية وموجة آتية
والموجتان ليس بينهما من الرباط ما بين موج شاعرنا رامى الذى نرى فيه
الموجة تجرى ورا الموجة عايظه تطولها تبوح لها ، وتحبها ، وتدور الأسرار
ويطول السرار •

أشياء كثيرة اختفت وأناس أيضا • • الفران والعوالم وموكب الجهاز
وليلة الحنة والحنطور والمحمل ورؤية رمضان •

ابتلعت دوامة الجرى اللاهث ، الرومانسية وابتلعت كثافة السكان
كل شيء أو أى شيء يقال وأطلت تفاهات كثيرة برأسها .. وشباعت أشياء
غثة خاصة في الغناء الذى بدأ يرتد الى أغنية الستارة التى فى ربح
مؤلفى الكاسيتات .



لقد ذعرت يوما من مثل هذه الاغانى :

يا عم يا ورق - حطة يا بطة - متيجى يا عسل - يا واد يادندشه -
الطشت وصاحبته .

هذه الاغانى وأمثالها تعلن عنها زليخة فون ولعاب فون ومهوس
فون وكمون فون الخ ولم أكن أدري أن مكاتب الصحة تضيف الى كل
اسم كلمة فون ..

ان أغنية الستارة القديمة أثارت غضب رئيس الوزراء فى ذلك
الوقت محمد محمود باشا ، ابن الصعيد فأنشأ قلم المطبوعات لمراقبة
الانحراف فى التأليف .. ترى ماذا كان يفعل لو رأى وسمع هذا
الغثيان .

على أن ذلك العصر حفظ فى المقابل قصائد رائعة غناها صالح
عبد الحى وأم كلثوم وتألفت فى القاهرة سنة ١٩٢٠ لجنة ترقية الاغانى
القومية . وغنى سيد درويش :

مصر أولادها رجال يفهموها وهى طايره
عطشان يا صبايا دلونى ع السبيل

من الصور التى اختفت من القاهرة بعد أن سقرت المرأة المصرية :
البرقع .. ويقول الدكتور أحمد أمين أنه كان يصنع بالمحلة الكبرى ضمن
ما تصنعه هذه المدينة . وكان البرقع يغطى الوجه عدا العينين فيتيح فرصة
أكبر لجمال عيون المصريات وكأنه اطار لها يركز عليها الاهتمام . وكان
للبرقع قسبة تعلق فى أعلاه يخرج منها قطان ينتهى عند شريط عريض
طويل يلف حول الرأس عند أعلى الجبهة ثم يعقد من الخلف .

وكانت قسبة البرقع مجالا للتباهى فقسبة ذهب وقسبة فضة
وقسبة مطلية فقط بالذهب أو الفضة وقسبة نحاس .. وأخيرا قسبة
من القصب أو الغاب لرقاقات الحال .. انها طبقية البراقع .

وقماش البرقع أيضا يتفاوت شكلا وموضوعا فيكون من الكريشيه

أو الحرير اسود أو أبيض ويكون مخرقا خروقا واسعة أو ضيقة في أشكال هندسية ويسمى (المشخاخ) .

وتزين بعض النساء البراقع بقطع الذهب يسمى « غازى » أو « بندقى » وخاصة الفتيات . وكانت الفتاة في الأحياء الشعبية المصرية بعد سن العاشرة تلبس البرقع الا اذا كانت تلميذة مثل . وتتفنن النساء في تحلية البراقع كما يتفنن في زينة ما تحتها من وجوه شربت من ماء النيل وسرت فيها عذوبته دما وروحا .

والحقيقة أن « عروسة البرقع » الأصل فيها الغاب ثم تأتي التلبيسة أى الغطاء الذهبى أو الفضى . ومن هنا المثل المصرى الشعبى . لبس البوصة تبقى عروسة . وأصبح يطلق على كل من تجلوه الزينة فتنتله من حال الى حال . .

واختفت مع البرقع التطريجة أو الملاءة اللف كما اختفت الحبرة التركية وان عادت هذه الأيام تحت اسم آخر .

واختفى الخلخال وكان حلية أساسية بين بنات البلد حتى الموسرات كن يلبسنه من ذهب وأوبريت الليلة الكبيرة تنادى فيها احدى بنات البلد فى طعامه ياولاد الحلال بنت تايهة طول كده . . فى رجلها الشمال خلخال ذى ده . . فرصة تكشف عن جمال ساقها وخلخالها ألم أقل انها طعمة بنت البلد ؟

وبهذه المناسبة أقول ان لى صورة فى السنة الاولى من عمرى فى رجل خلخال رفيع وفى معصمى اسسورة وفى أذنى حلق لأجلس كاملة الهيئة على حجر جدتى .

طفلة بنت بلد . . لقد ولدت مصرية :

طاسة الخضة :

صورة أخرى من صور القاهرة فى طفولتى . . أتذكرون طاسة الخضة تلك الطاسة الصغيرة الجميلة ذات الحليات والكتابات . وكان البيت المصرى يحرص عليها حتى اذا فزع طفل من أطفاله سقوه من طاسة الخضة فيهدأ وجبيه ويسكن نحيبه ويطمئن أهله عليه . . وبعض البيوت لا يملك طاسة الخضة وهنا يستعيرها اذا لزم الأمر أى فزع طفل فيه . . اتخض . .

وطبعا لا يفوت جدتى ان تقتنى من أجل طاسة الخضة وكعادتها فى المبالغة فى تدليلي كانت لا تكتفى بالماء تسقينيه من طاسة الخضة بل تضع

فيها تمرا أو تينا جافا ثم تبيتها في العراء أى على قاعدة النافذة وكانت عريضة في البناء وبها فتحات توضع فيها القلل لتبرد .

تبيت جدتي طاسة الخضة بتمرها أو تينها في العراء لينزل فيها ندى الفجر فاذا استيقظت في الصباح أكلتني ما بها عن آخره لتطمئن تماما أن الخضة ذهبت الى غير رجعة وأن الشر عنى زال .

وما أكثر ما تكرر هذا الموال على أثر كل لفتة أو حركة . . كانت تقول عن اعتقاد ان نجمى خفيف ، وبناء عليه كل شئ يزعجنى أى يخضنى على حد تعبيرها . . على كل حال كنت سعيدة بهذا لما يعقبه من تين وتمر وأطايب أخرى .

وبمناسبة أكل الأطفال ، نعم أطفال القاهرة معى بعلى لوز وهو سكر معقود يصب في صوان صغيرة وينثر عليه اللوز وخاصة في الأعياد والمواسم .

ويتساءل أستاذنا الدكتور أحمد أمين عن سر هذه التسمية ثم يعزوها أو يرجع على الأقل الى التشيع الذى كان سائدا في عهد الدولة الفاطمية ونسبتهم كل شئ الى على . . فهذا النوع من الحلوى « على لوز » وعند المطر يقولون : يا فرح على . . وعند الكرم والجود يقولون : عامل أبو على ونحن الآن نقدم فى الولايم نوعا فائرا من الحلوى نسميه امتدادا لهذا : أم على .

ولما كان الريف متواضعا قدم للاسم ، الزيت فغنى على يا على . يابتاع الزيت .

الفران :

تحدثت عن أشياء وصور اختفت من القاهرة . من هذه الصور ، (الفران) . كانت صناعة الحبز جزءا من البيت المصرى فى المدن والريف على السواء . كان البيت يحتشد له بدءا من تنقية القمح وطحنه فى القرية ، ونخل الدقيق مرة ومرتين فى المدينة وقد عرفت طفولتى الطريقتين .

وسواء فى القرية أو المدينة وهى هنا كبرى المدائن . . أى القاهرة كنت أتشبهت بالاشتراك فى سائر العمليات وخاصة فى المراحل التى تدل على المهارة مثل « الحبيز » . . وأرضاء لى كالعادة أوصت جدتى بصنع مطرحة صغيرة خفيفة لى وكانت أثناء قطع العجين قرصا على الألواح الخشبية .

تقطع قطعة صغيرة أو قطعتين فتضع لى على المطرحة الصغيرة الخاصة بى
قطعة العجين وأقوم برحرتها على المطرحة فى تقليد للكبار وكنت أفعل
هذا فى سعادة غامرة كائى أدلل طفلا ، أنا الطفلة فى ذلك الحين ثم أشب
لألقى الرغبة فى الفرن ٠٠ فإذا نزل من المطرحة مستديرا سوى الأطراف
فبرحت جدتى وجعلت هذا موضوعا للحديث ؛ وإذا تكوم منى الرغبة على
بلاطة الفرن قالت فى حنان غامر : لا تخافى أنا أكله ٠٠ فإذا استمرت
علامات الخجل أو الألم على وجهى ، أعطتنى قطعة أخرى من العجين
لأحاول من جديد أو فى الحقيقة لألعب من جديد فقد كانت العملية بالنسبة
لى فى الحقيقة لعبة طريفة ٠

اختفى الآن الفرن فى المدينة ، والفرن فى بيت القرية وغدونا جميعا
نشتري العيش جيدا أو رديئا ، ولأنه جاهز ، لا نحس به ، زايلته مكانته
القديمة فى النفس المصرية ٠٠ اننا الأمة الوحيدة التى تسمى الخبز
« عيشا » وتكاد تقدسه حتى لتقسم به وإذا وقعت كسرة على الأرض علمونا
أن ننحنى على الأرض ونحنو على اللقمة ونرفعها الى شفاها ونقبلها ٠٠٠
ويزيد الكبار قولهم أستغفر الله العظيم ٠ لقمة على الأرض تورث الاحساس
بالذنب والآن ترمى البيوت المصرية أرغفة كاملة وعزيزة فى صناديق
القمامة أو للدجاج بحجة الرداءة التى تزهد النفس معها فى أكله ٠٠
أو اكتفاء بالعيش الفينو الأبيض فى عملية اعجاب ساذج بكل ما هو
أبيض ٠٠ الرغبة الأبيض والرجل الأبيض ٠٠ وليس هذا بالشئ
الهن ٠٠ انه تغير نمط حضارتنا وهنا مكن الخطر ٠

تغير النمط الاستهلاكى ودلالته :

تحدثت عن الفرن فى المدينة والفرن فى القرية والمسألة ليست مجرد
صورة اختفت من حياتنا انها أبعد كثيرا من هذا ٠٠ ان تغير النمط
الاستهلاكى يتبعه تغير النمط الحضارى وهنا كما قلت مكن الخطر ٠
وليس الخبز الى مثلا قريبا ٠ هناك الملابس الذى تغير بدوره فبدأت تغير
الأسواق كميات رهيبة من الخيوط الصناعية وملابس مختلفة الأشكال
والأنواع والرسومات والألوان الزاهية للاستهواء فأصبحت الأسرة المصرية
تلبس الالياف الصناعية بعد عزوف أوربا عنها الآن ٠ اذ أثبتت الدراسة
بالكليات الهندسية المتخصصة فى تكنولوجيا النسيج ، أخطارها ؛ فهى
تفتك بجلد الانسان نتيجة الحرارة الاستاتيكية المتولدة منها على سطح
جسم الانسان ٠٠ نفعل هذا وعندنا القطن الذى يناسب جوفا الحار لسرعة

امتصاصه للعرق وسرعة تبخيره الماء ، فضلا عن تحمله أثر ضوء الشمس المباشر فلا يتوبّر أو يتساقط منه أجزاء •

مكمن الخطر كما قلت أن التقليد في الوسائل نتيجه الختمية تعميق التبعية للدول المصنعة •

ان التغير دوما جزء من بيئة وطبيعة الانسان ولكن مخاوفنا تتركز في نوعية هذا التغير •• ومعدله وتأثيره في كل منحى من مناحى الحياة حتى القيم الشخصية والمستوى الخلقى بل المعتقدات مع بعد هذه عن التكنولوجيا التي تتردد كثيرا هذه الأيام • وقد أدى التلاؤم الذي يقيمه تصور الحضارة الصناعية بين مستوى الحياة وبين التقدم التكنولوجى الى ما يسميه بعض الكتاب الاجتماعيين الغربيين أنفسهم ، بالفرور الحضارى سواء عند الخبراء الذين يعملون في المجتمعات النامية أو عند الدول المهيمنة نفسها •

وهكذا يتمزق الانسان بين حضارته وحضارة الآخرين ، وطبيعة الصراع بين الحضارات الغالبة والمغلوبة وتمزق انسان الدول النامية بين قيمه الموروثة والمحبة وبين مقتضيات ومتطلبات الحضارة الصناعية ، ظاهرة نحسها •• وهكذا أصبحت القاهرة طفولتي ذات الطابع العريق ، برج بابل غدت أنماطا مختلفة وتيارات مختلفة وكلما كثرت الأنماط وتباعدت دلت على أن الأمة في دور الاعتماد في فترة قلق وحيرة نفسية وتظل هكذا الى أن (تتبوتق) لو جاز هذا التعبير ويسفر الانصهار عن شيء جديد ، والى أن يظهر هذا الجديد سنظل نعيش المتناقضات التي تحيط بنا •

أشرت ، قبلا الى برج بابل أى عن مجمع المتناقضات التي نراها في مدينتنا القاهرة • ومعنى هذا أننا نراها بصورة أسوأ في مدننا الأخرى التي ليست عواصم •

في المسرح مثلا لو تأملت جمهوره خاصة مسرح الغناء تجده بين انسان يشرب الصمت ومازوم يشرب الضجة وما أكثر غواة الضجة هؤلاء بيننا ومن ثم لا يستسيغ معظمنا الموسيقى السيمفونية • ان سماعها فن وحده بما يحوطه من هدوء قار ، صمت متعمق ، وتذوق واع ، وتجاوب شاعر ، وحس شفاف ، واستغراق مشرب ، وتفتح مشبوب ، وتقبل هفاف صاف •• وهي قدرات لا تعز علينا ولكننا لا نطيقها ولا نصير عليها •

وما نشهده في الغناء ، نشهده في البناء فبييت أو فيلا على الطراز الايطالى ، وأخرى على الطراز العربى ، وثالثة على الطراز الانجليزى المنحدر

السقوف مع أن جونا المشمس المشرق قليل الأمطار • وهذا كله دلالة الوحيدة أن مفاهيمنا وأذواقنا ونوازعنا في شبه دوامة لم تستقر بعد على حال •

الكرنفال :

التعليم •• الأدب •• الفن •• القيم لا تخلق هي الأخرى من هذا التباين ولا هي منه بمنجاة •• فالتعليم منه الدينى الخالص ، ومنه المدنى على أنواع ، ومنه الأجنبى مذاهب شتى •

والأدب منه ، لا يزال يتعلق بأهذاب الماضى ، ومنه ما يجافى هذا الماضى جفاء يقطع الصلة •• ويوسع الهوة ومنه ربيب أوروبا مادة وروحاً ، اقتباساً أو محاكاة ، ومنه المحلى التابع من صميم واقعنا •• ألوان •

وإذا كانت الموسيقى أقرب الفنون الى الأدب فإنها فى مصر أصدق مثال على هذا القرب ، والتشابه • الموسيقى فى مصر منها ما لا يزال يتعلق بالموسيقى التركية ذات البشارف التى كانت عماد موسيقانا فى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ومنها الذى يقتبس من أوروبا من غير كلفة ، ومنها ما يستوحى بيتتنا : ريفنا • والحضر •

وتأبى المرأة الا أن يكون لها دورها فى هذا الكرنفال فواحدة محجبة لا يظهر منها الا حدقتان تبرقان وأخرى سافرة الى حد متابعة بيوت الأزياء فى تقلباتها بين الطويل والقصير والضامر والمنفوش وثالثة تتعثر فى المسافة بين الطرفين •

وإزاء هذا التباين ونتيجة له تتباين فى الحياة اليومية أساليب العيش وأساليب الحديث وأساليب التعبير عن ذاتنا حتى ليجمع البيت الواحد أنماطاً من التعليم والأزياء والأذواق والعقليات وطرائق التفكير بل ولغة الحديث على ما بين أهل البيت من وشيجة القربى وصلة الرحم •

وينعكس هذا فى قصصنا : زقاق المدق ، « قنديل أم هاشم » وغيرهما •

ليس الا انتشار التعليم وازدهار الصناعة والوعى بتاريخنا وحضارتنا سبيلاً الى الطابع القومى و « الشخصية المتميزة » ••• شخصية مصر •

وما عدا هذا فهو مسخ • ومن المسخ ، نسخ قومية الطابع وأعجمية الأسماء • عندما كنت طالبة يخطو صباى على دروب القاهرة ، كانت أسماء

المعالم الرسمية وشعبية مصرية خالصة بل يحس الانسان مصريتها حتى في أبعد الأشياء عن السياسة أو الوطنية فتجد بقالة النيل الأزرق ونادى وادى النيل وأحسب أن هذا امتداد للنهضة الاقتصادية التي أرسى قواعدها ، طلعت حرب فينك مصر يتوسط القاهرة وشركاته جميعا تستهل باسم مصر ، أولا ، ثم الصفة المشتركة ثانيا فالشركة المصرية للملاحة وشركة مصر للطيران ، وشركة مصر للغزل والنسيج الخ •

ومصرية الأسماء أيضا امتداد للكشوف الأثرية التي تلت كنوز توت عنخ آمون • والاعتزاز بالمصرية ومصرية الأسماء أيضا ، امتداد للثورات المصرية ضد المستعمر ثورة ١٩١٩ و ثورة ١٩٣٦ • وكانت الجامعة مركز إشعاع ، وكان الأزهر مصدر مقاومة تخرج منه المظاهرات • كان للأزهر رأى ، وكان للجامعة رأى ، وكان للشباب فى كلا الحرمين رأى وكان للشعب رأى هو الرأى العام •• وما أكثر ما اعتدل به الميزان واستقام المائل حتى القصة المصرية ولدت فى هذه البيئة وهذا الجو كما يقول محمود تيمور على نقطة الوعي بكلمة مصر وكان أبطالها وأحداثها وأسمائها وموضوعاتها مصرية صميمية •• كان يستحيل فى هذا الجو المشحون بالقومية والوطنية أن يجرؤ أحد ولو كان أجنبيا أن يطلق الأسماء الغربية على كل صغيرة وكبيرة فى حياتنا بل كان الأجانب يتوسلون للعيش بيننا بالتستر وراء الأسماء المصرية فأوروزديك اسمه الذائع بيننا عمر أفندى •• ونماذج أخرى تخرج من الأسماء العربية القحة والأجنبية السافرة بالأسماء التاريخية خاصة الفرعونية فتوجت أعمالها بأسماء : ايزيس - أوزوريس - حوريس رمسيس - توت عنخ آمون - سيتي - أحمس •

عندما كان الانفتاح نابعا منا ، اقتصاديا ، على يد طلعت حرب ، وعلمنا على يد الجامعة المصرية ، وديننا على يد الأزهر ، وجذورا على يد المجمع اللغوى ، وتاريخنا على يد التنقيب عن الآثار ، وهبات قومية على يد دعاة الاستقلال •• عندما كانت حياتنا جدا ترتفع فيها القيم ، جدت الأسماء •

لقد تحدثت فى هذا الموضوع فى الاذاعة أواخر سنة ١٩٨٣ ثم أثرت هذا الموضوع فى لجنة القاهرة بالمحافظة سنة ١٩٨٤ و سنة ١٩٨٥ فهل تستطيع محافظة القاهرة أن تخلصنا من الظاهرة المهينة التى تفشت وهى أعجمية الأسماء ؟ ماذا حدث للقاهرة ؟ •

أقول تفشت لأنى فى الريف أقرأ على الاكشاك الصغيرة والحوانيت المتواضعة مثل « كافتريا دالاس » ، « أوبرج ••• » 11

ان القانون رقم ٦٢ الصادر فى ٣٠ أغسطس عام ١٩٤٢ يقضى

بإيجاب (استعمال اللغة العربية فى علاقات الأفراد والهيئات بالحكومة ومصالحها وأن المادة الثانية معدلة بالقانون ١٣٢ لعام ١٩٤٦ تحتم أن يكتب باللغة العربية اللافتات التى تضعها الشركات والمحال التجارية أو الصناعية على واجهات محالها على أن ذلك لا يمنع من أن تكتب بلغة أخرى الى جانب اللغة العربية على ألا تكون أكبر حجما ولا أبرز . وبعد النص على العقوبة التى تتضمن السجن والغرامة تقول المادة [٣] فإذا وقعت الجريمة من احدى الشركات أو أحد المحال التجارية أو الصناعية رفعت الدعوى العمومية على مدير الشركة أو صاحب المحل .]

وهكذا نرى مهمة محافظة القاهرة ليست عسيرة بمقتضى القانون وبحكم ما تعارف عليه الناس فى بلادهم فلا تبدو القاهرة وحدها غريبة على أرضها .

الحدائق :

من الصور التى اختفت من القاهرة : الحدائق وأشهرها وأكبرها وأجملها حديقة الأزبكية التى أنشأها فى عهد اسماعيل ونظمها ، مسيو باريه مدير حدائق باريس . وحديقة الأزبكية هذه التى اغتالها يد الجهل وكان لها تاريخ . كان بها ثمانمائة شجرة نادرة وكان بها كشك موسيقى تعزف فيه الموسيقات العسكرية « والمزيكة الميرى » كما كان أهلها يسمونها تعزف ادوار (يا طالع السعد) و (العفو لسيد الملاح) وغيرها .

كما تعزف المقطوعات الأوربية مما يفصل الحديث عنه استاذنا الدكتور حسين فوزى فى كتابه الصغير الكبير (سندباد فى رحلة الحياة) .

وحديقة الأزبكية بعد هذا رثة القاهرة التى اغتالوا كل خضرة فيها وحولها . فاقترضوا جزءا من حديقة الحيوان لكلية الهندسة واجتثوا جزءا من حديقة النهر . لمسرح الجيب وادارة مرور الجزيرة ثم اقتطعوا جزءا كبيرا منها مؤخرا من أجل كوبرى أكتوبر .

وامتدت يد الاعتداء الى حدائق الزهرية فأقيمت فيها المنشآت وبعض الأندية الرياضية ومراكز الشباب كما استقطع الجانب الأكبر من حدائق القصور بالزمالك وتم تحويله الى أرض للمعارض .

أحسبكم تلتقون معى فى ضرورة الحدائق لمدينتنا القاهرة . ان نصيب المدن الكبرى فى الدول المتقدمة من الخضرة ٦٪ من مساحة هذه المدن أما القاهرة فنسبة الخضرة فيها أربعة من عشرة أى أقل من واحد .

القاهرة فى حياتى - ٨١

أقل من نصف واحد !! هل يرضى محب للقاهرة ولمصر بما آلت إليه
الخضرة فى عاصمتنا الكبرى بل فى عاصمة المجد والتاريخ ؟

جاء فى البحث الذى أعده وزير السياحة الأسبق الاستاذ عادل طاهر
عن الحفاظ على البيئة الطبيعية وحماية التراث الحضارى أن المعدلات العالمية
تحدد نصيب الفرد من المساحات الخضراء بمساحة تتراوح بين ١٢ ، ١٦ مترا
مربعا ، وان كانت بعض الدول قد زاد نصيب الفرد فيها الى حوالى ٢٠ مترا
مربعا ففى لندن يبلغ متوسط نصيب الفرد من المسطحات الخضراء ١٦
مترا ، وفى نيويورك ١٨ مترا أما فى القاهرة فلا يتعدى متوسط نصيب
الفرد ٧٥ سنتيمترا على الرغم من أنها عاصمة مصر وأكبر مدن الشرق
الأوسط وأفريقيا .

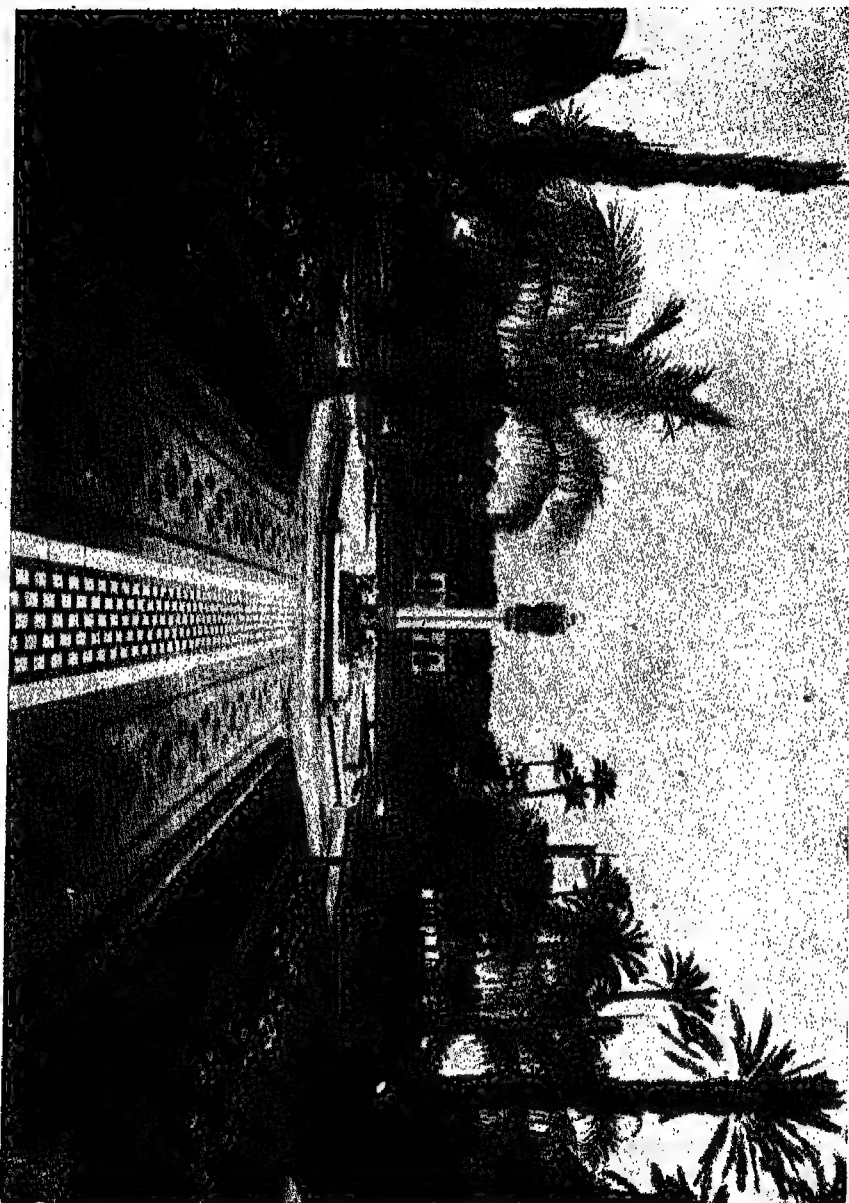
وقد كشف التقرير عن واقعة خطيرة وهى أن مصر التى تنفق فى
سخاء على مظاهرات موسمية ليست بها ميزانية للحدائق منذ ثمانية أعوام
كما أن الخطة الخمسية (٧٨ - ١٩٨٢) لم تذكر الحدائق بشئ من
الجدية أو التفصيل .

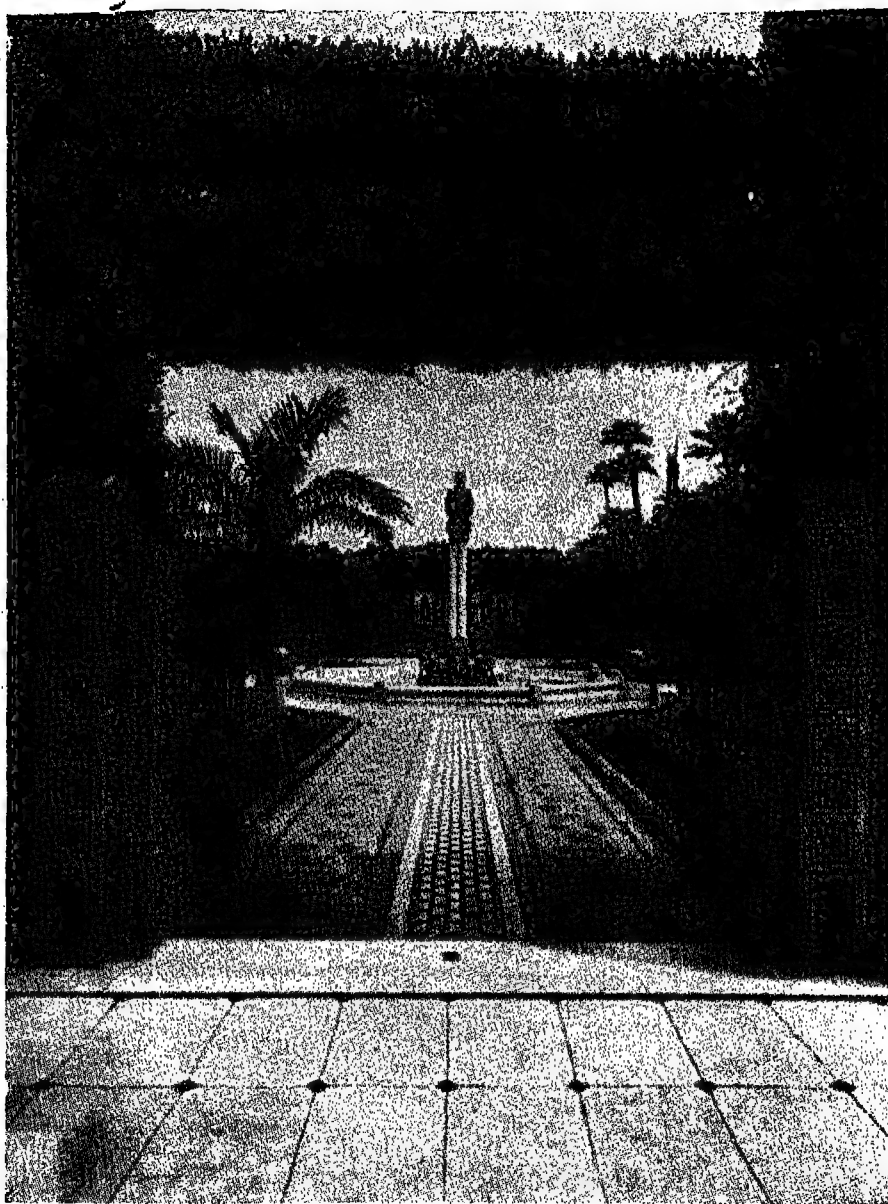
بقى أن نذكر نحن الحدائق وضرورتها لمدينتنا القاهرة . ولم يقف
الأمر عند الاعتداء على الحدائق العامة بل امتد الأمر الى الحدائق الخاصة .
ففى الزمالك البحرية والقبلية استشرت ظاهرة إقامة العمارات السكنية
المنطلقة الارتفاع على حدائق القصور بهذا الحى المرموق سابقا ! بل تم
تحويل القصور نفسها الى مصالح حكومية ، وحدائقها الى مكاتب موظفين .
حتى القصور التاريخية كقصر لطف الله بحديقته الرائعة ذات الجبلية
أقيم مكانها فندق لا يهتم التاريخ فى حساب الربح والتجارة .
ومثل هذا حدث فى جاردن سيتي حيث اندثرت القصور التاريخية
وحدايقها .

ونعتقد الاجتماعات بمحافظة القاهرة وتعرض التوصيات ثم
تأخذ مكانها فى الأدرج حيث يخيم عليها النسيان أو التناسى وتزداد
الماسى يوما بعد يوم وما حدث لجزيرة الزمالك حدث مثله لجزيرة الروضة
التي حرمت من الحدائق التى غنيت بها سابقا . . وقام على اطلالها مبان
ومسارح ودور لهو ومحطة مجارى أيضا .

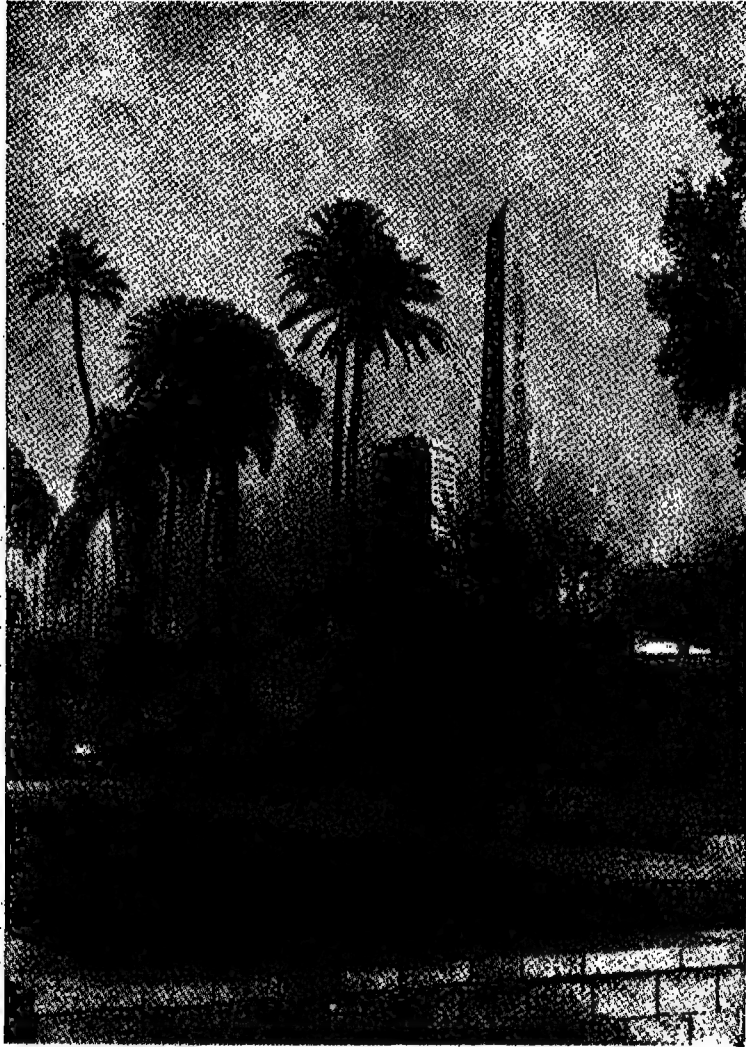
حتى حدائق قصر المانسترلى فى جنوب الجزيرة التى كانت مع القصر
تشرف على مقياس النيل وكانت أشجارها الباسقة والنادرة يزيد عمر
بعضها على مائة عام ، اقتطع منها خمسة أفدنة ليقام عليها محطة مياه .
كان لنا الله . . .

حديقة الوردوس بالجزيرة - الزمالة





مدخل حديقة الاردوس الانكليزية



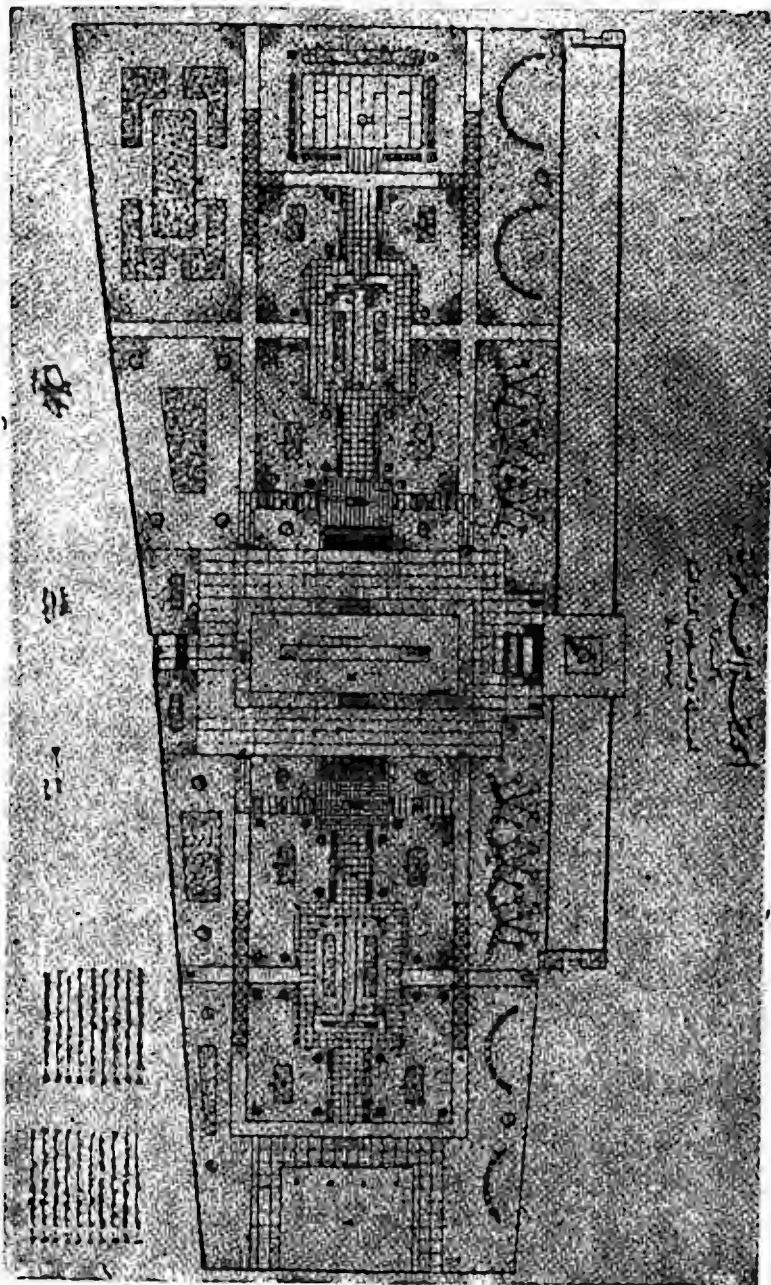
الحديقة الفرعونية بالجيزة - الزمالك

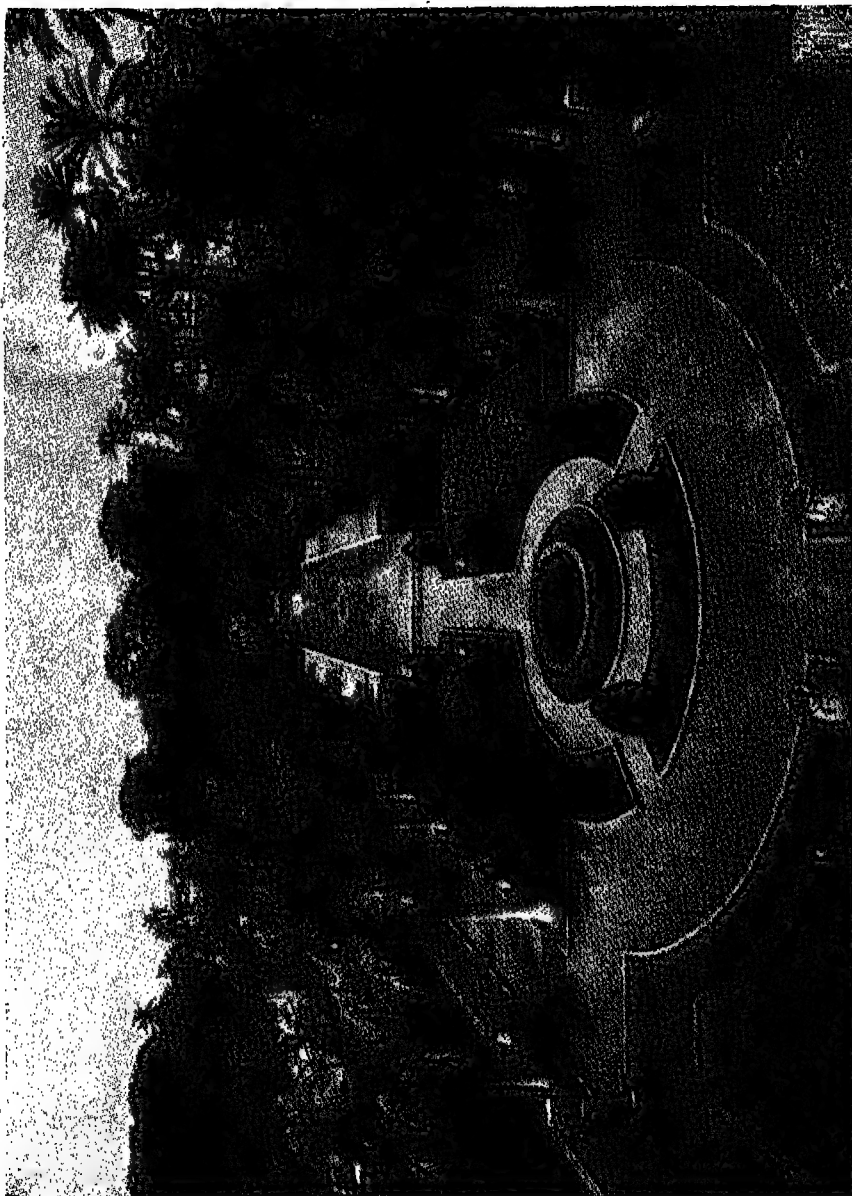
(اول حديقة فرعونية فى العالم)

« حديقة النهر سابقا »



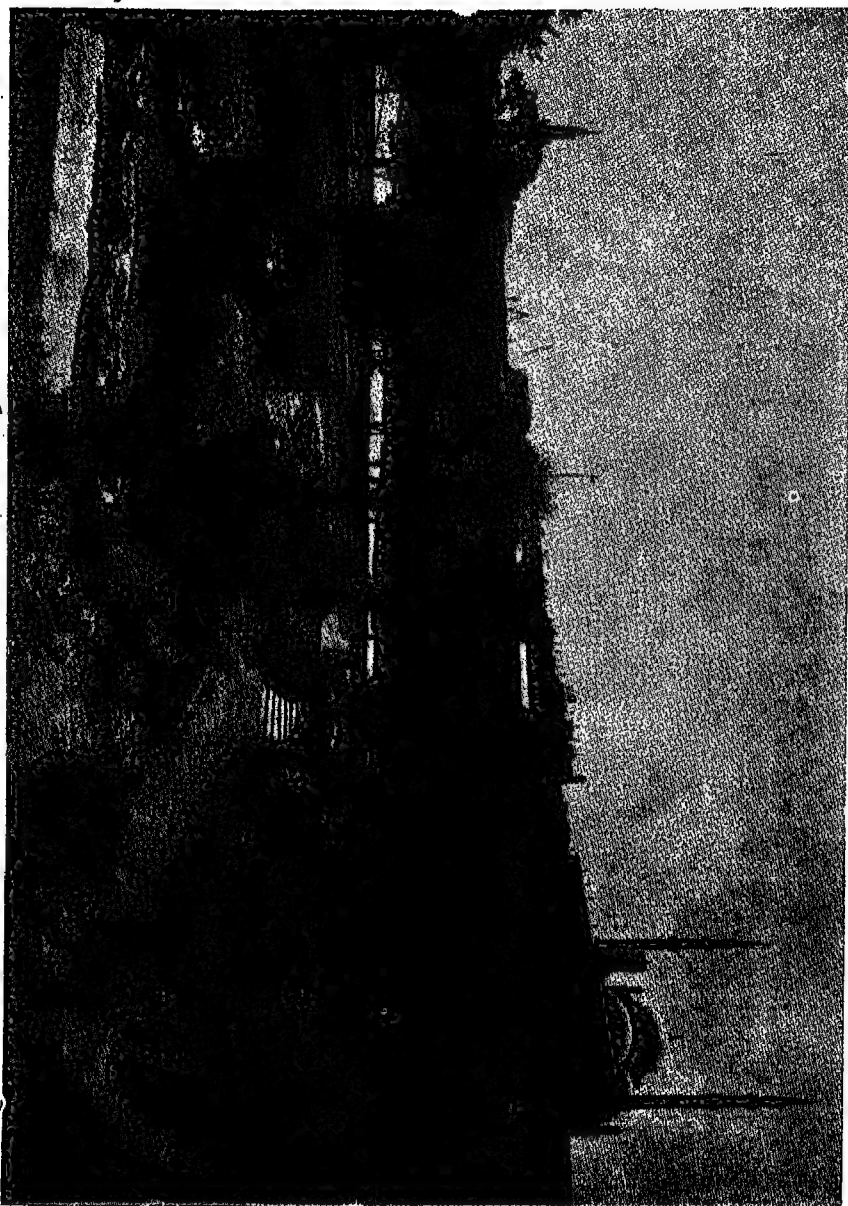
الأسود والأخضر في المدينة القديمة

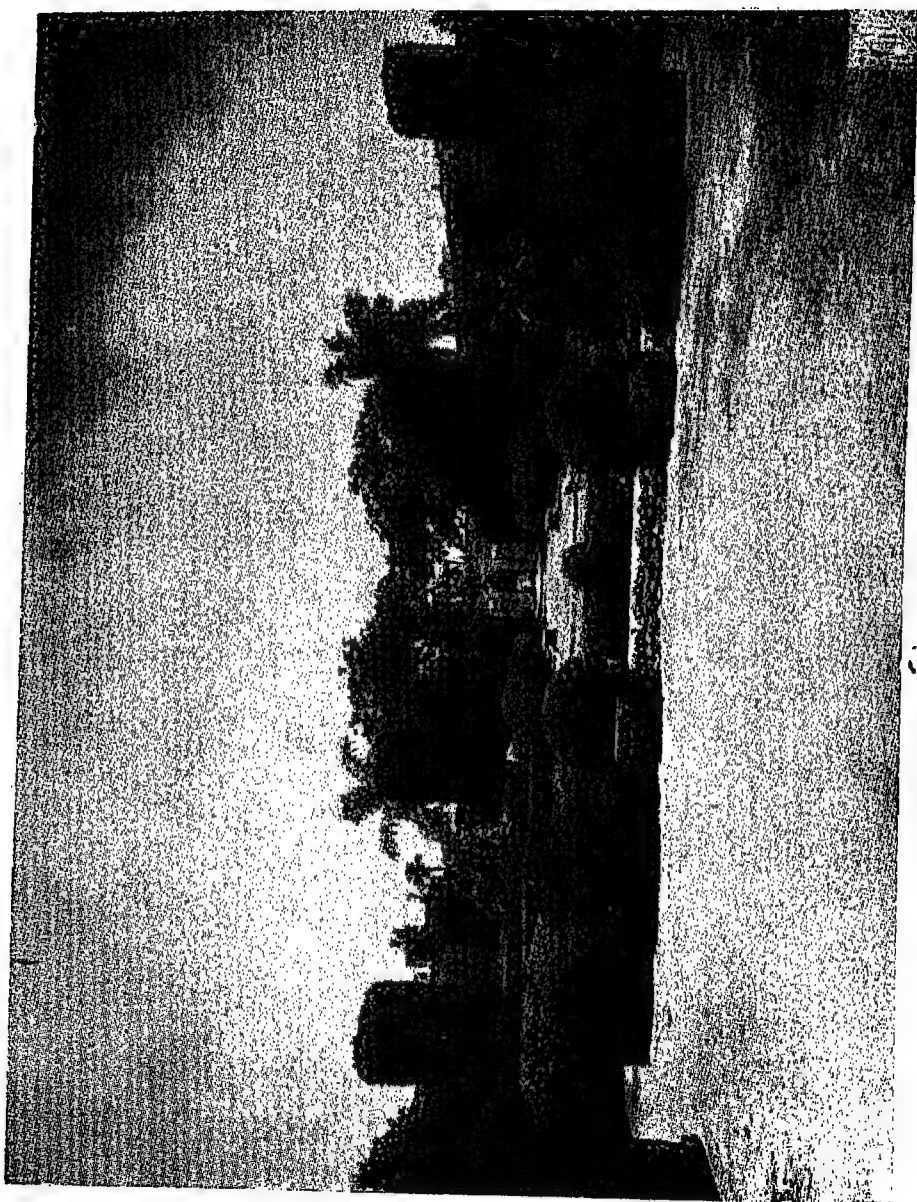




حديقة مود على الطراز القروى

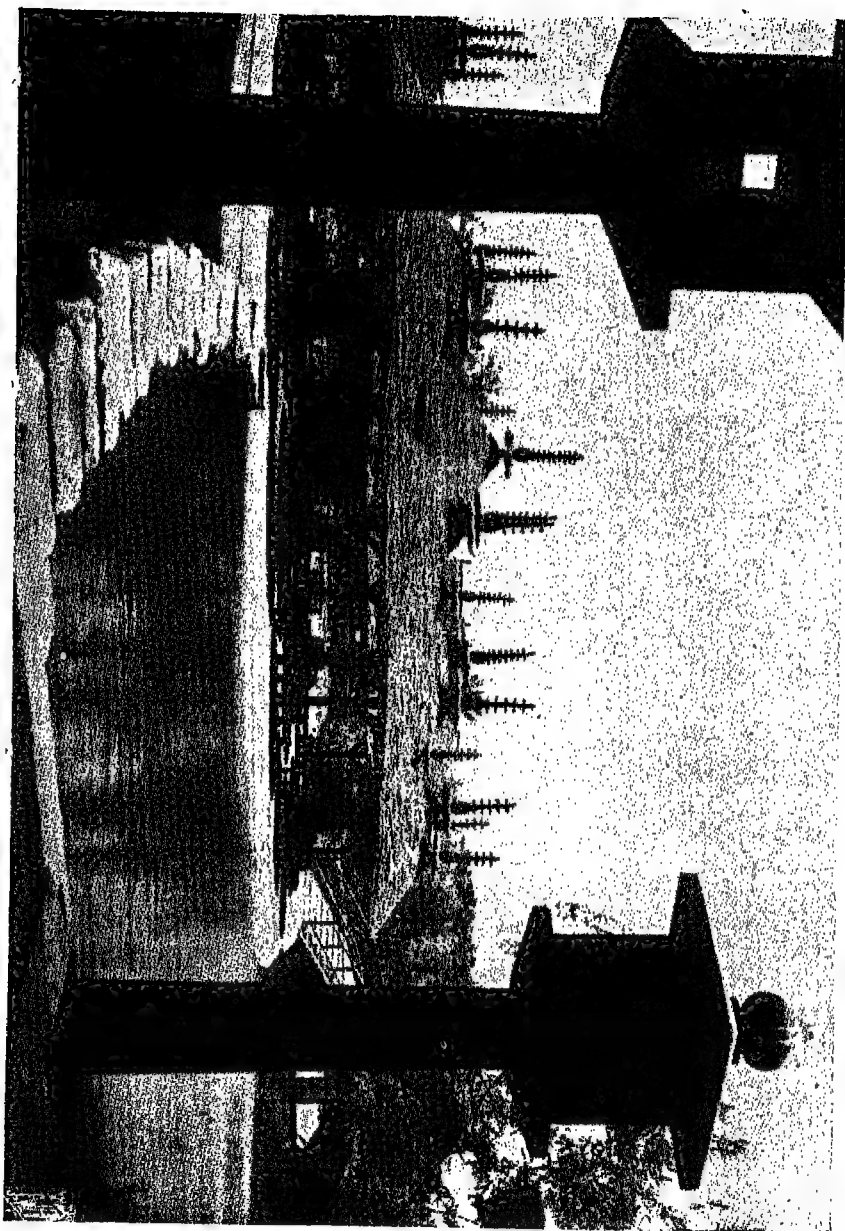
مدينة ميدان المشية بالأمم





حديقة ميدان القاهرة

التيقنية التكنولوجية بالمران



وكما حرمت جزيرة الروضة من الحدائق ، حرمت أيضا من النيل
فان هذه العشوائيات الحجرية غدت تحجبه عن العين المصرية التي تدخره
راحة استرواحه كلما لفحها الهجير .

أما حدائق ميدان التحرير فقد تم تحويلها بحمد الله الى مواقف
أتوبيسات .

وأخيرا وليس آخرا كما يبدو . . حديقة قصر محمد على بشبرا
ومساحتها خمسون فدانا . وكانت تعتبر احدى روائع حدائق القاهرة
بل من أندرها وأنفسها بما تضمه من ألوان الشجر والزهر كما كان يعد
القصر نفسه من أندر القصور في العالم والقصر وبحيرته الصناعية وحديقته
الغنية . . كل هذا كان واليوم ماذا بقى له من هذا كله وماذا ضاع منه ؟ .

أما الأمير محمد على توفيق وكانت حدائق قصره بالمنيل ، عالمية
الشهرة من جمال وروعة . وكان قد وقف عليها من أرضه ، لصيانتها . .
هذه الحدائق يعيث بها نادى البحر الأبيض الذى يرأسه روتشيلد
اليهودى . .

وحديقة السيدة زينب (الحوض المرصود) .

وحديقة ميدان الظاهر ، وغابات الدراسة ، وحديقة ضريح أحمد
ماهر ، وحدائق القبة ، وحدائق المتحف الزراعى بالدقى .

وحدائق بولاق أى البحيرات الجميلة .

كتب لى الدكتور اسماعيل مصطفى اسماعيل المدير العام السابق
للادارة العامة للحدائق والتشجير بمحافظة القاهرة أن حديقة الحرية كانت
موضع زهو مما حدا بالحكومة سنة ١٩٦٢ أن تدعو الأمير سيهانوك الى
زيارتها ، وشرب الشاي بها .

أين حديقة الحرية الآن ؟ وأين حديقة مور أو الحديقة الفرعونية ؟ وإلى
متى يظل مبنى المقاولين العرب يشوه حديقة النهر ، المبنى الذى زعموا
أنه مؤقت لادارة الكبارى للتحايل على اقتطاع الأرض ليجشموا عليها عاما
بعد عام حتى تصير مع التقادم أمرا واقعا ، وملكا ضائعا على الدولة التى
هى نحن دافعى الضرائب ؟ .

أين حدائق فم الخليج وحدائق حلوان والكابريتناج ؟

يقول الدكتور اسماعيل مصطفى اسماعيل وهو رجل مختص ، ان
القاهرة تملك مشتل البراجل ومساحته سبعون فدانا بصوباته الزجاجية

والخشبية وورش الصيانة ٠٠٠ كيف تتعامل معه ادارة الحداثى ؟ وما مدى استفادتها منه فى « تخضير » القاهرة ، و « تحضير » نواحيها ؟

هكذا كانت حداثى القاهرة التى اندثرت وشوهت واستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير هذه الحداثى التى وفرت لها القاهرة كل ما يعجب الجمال والفن والذوق الحضارى والمستوى الرفيع ٠٠ ثم أتت عليها جميعا معاول الهدم وكان القاهرة نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا ولكن لا ليست القاهرة ولكن أعداء الجمال والحضرة والنضرة أى أعداء القاهرة الزاهية الساحرة أو هكذا كانت حبيبتنا القاهرة ٠

ان صورة القاهرة التى عرفتها طفولتى لا تمحى من وجدانى أبدا ٠
هذه الصورة الغالية دخلت حياتى ٠٠ القاهرة فى حياتى حقيقة لا مجازا ٠
ولهذا تؤرقنى القاهرة اليوم ويقلقنى عذابها ٠٠

قرأت فى ٢٣/٧/٧٣ فى جريدة الأخبار أن مدينة نابولى تبكى حزنا على موت شجرة صنوبر عجوزا وهى تلك الشجرة التى تصور على جميع الصور الفوتوغرافية ، والزيتية لمدينة نابولى الايطالية خلال الثمانين عاما الماضية كشعار للمدينة ٠

وقد نشرت الصحف الايطالية نبا موت شجرة الصنوبر الشهيرة وكأنها تنعى شخصية وطنية شعبية ! لو بكينا على ما يستحق البكاء مما ضاع من القاهرة ومن مصر لأغرق الأرض سيل من الدموع أو جرى فيها نيلا مع النيل ٠

حكى المقرئ فى كتابه (المواعظ والاعتبار) أن أمير مصر موسى بن عيسى خرج الى منطقة الرصد فالتفت الى من حوله مأخوذا وهو يقول :

أتأملون الذى أرى ؟ قالوا وما الذى يرى الأمير ؟ قال : أرى ميدان رهان وجنان ونخل وبستان شجر ومنازل سكنى ونهرا عجاجا وأرض زرع ومرتع خيل وساحل بحر وصائد نهر وسهلا وجبلا فهذه ثمانية عشر متنزها فى أقل من ميل فى ميل ٠

والآن القاهرة كلها ليس بها ثمانية عشر متنزها ٠٠ أو نصف هذا العدد ٠

الهدوء :

تحدثت طويلا عن صور اختفت من القاهرة التى درجت فيها

طفولتي وشب صباى ٠٠ الى الآن صور مادية محسوسة ولكنى الآن أريد أن أتحدث عن أشياء معنوية اختفت من القاهرة ٠٠ أشياء عزيزة منها :

الهدوء : تتحدث القاهرة الآن من خلال الميكروفون وتغنى من خلال الميكروفون وتعلن عن السلع من خلال الميكروفون حتى القرآن الكريم على وقاره يرتل من خلال الميكروفون وكان كل شارع وكل بيت به محطة إذاعة محلية ٠ وبعد ضوضاء الأصوات تأتي ضوضاء المركبات بأنواعها ،

- وضوضاء الصور التى تزحم العين ٠
- وضوضاء الزحام الذى يكرب الأنفاس ٠
- وضوضاء الفوضى التى تؤلم الحساس ٠
- وضوضاء السلوك الذى يرهق الناس ٠

ألوان من الضوضاء تعاني منها حبيبتنا القاهرة ٠٠ فى اليبابان يستعينون على رفع كفاءة أطفالها بعزف الموسيقى بل ثبت علميا ان النباتات ينمو بالموسيقى ونحن نحاصر أطفالنا بالضوضاء فى الشارع وفى البيت وفى المدرسة وفى دور العبادة نفسها التى يجب بل من حقها أن يعمق فيها الصمت لنستمع الى كلمات الله ٠٠٠ ان الصوت الخفيض لون من الدمثة وأدب السلوك ورهافة الأسلوب ٠

يقول الله تعالى من سورة الحجرات : « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » ويقول جل شأنه « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور ٠ واقصد فى مشيك ، واغضض من صوتك ان أنكر الأصوات لصوت الحمير » لقمان ٠

وحين وصفت مصر القديمة الاله قالت : (مفرح لمن يلوذ بالصمت) حتى فى الدعاء أوصى حكيمهم بالاقلال من الكلام فان « الله يعرف عنا ما يريد » ٠

فى بيان أصدره مجلس العموم البريطانى فى أغسطس سنة ١٩٤٧ أن (اذا عزلت الضوضاء عن غرف كتاب الآلة الكاتبة ، فان ذلك يقلل ٢٩٪ من الخطأ ويزيد ٣٧٪ من الانتاج ٠ أما فى حالة موظفى المصالح فان هذا العزل يقلل ٣٧٪ من الخطأ ويزيد ٤٧٪ من الانتاج) ٠

ولامر ما خلد الأنبياء والمصلحون الى الخلاء ومجالى الطبيعة فى الغار أو الجبل ليستمعوا الى وحى السماء والى صوت النفس المنبعث من الأعماق الصافية فيهم ٠

ليتنا ندرك أن صوت الصمت أحيانا أروع وأوقع من صوت الكلام.

لقد عمل الدكتور على عبد الجليل راضى عدة احصائيات عن الضوضاء في أحياء القاهرة فخرج من النتيجة بصرخة ألم تقول (واقاهرتاه). واقاهرتاه عنوان كتابه الذى شخص فيه أمراض القاهرة جميعا وقد قسم الضوضاء في القاهرة أقساما أو ألوانا :

فضوضاء يومية تعيشها جميعا على تفاوت بين الأحياء ولكننا لم يعد عندنا حى واحد ينعم بالهدوء حتى ولو كان مترفا .

وضوضاء موسمية كالتي تسبق عيد الأضحى وكورس الخراف على أسطح المنازل وعلى أبوابها .

وضوضاء عاطفية لو صبح هذا التعبير كالتي تحدثها أبواق السيارات التي تحمل العرائس .

وضوضاء كروية كالتي يحدثها المشجعون في أعقاب المباريات .
وضوضاء فئوية كالتي يحدثها الباعة المتجولون .

وقد ينام كل شيء في القاهرة ولو في ساعة متأخرة من الليل ولكن الضوضاء فيها لا تنام . قد يخف معدلها في بعض الساعات فقط . .

ليت خطباء المساجد يقولون ان من الدين توفير الراحة للمريض والطالب والنائم والمجهد . . ليتهم يقولون ان من الدين الدمعة بل هو في جوهره حسن الخلق . . ومن الدمعة المصقولة : الهدوء .

لقد طالب المجلس الدولي للموسيقى سنة ١٩٦٩ في ندوة اليونسكو بباريس أن لكل امرئ الحق في الهدوء .

ويشير الدكتور راضى الى منظمات مهمتها محاربة الضوضاء . وقد قامت هذه المنظمات في عدة دول سنت لها القوانين الرادعة مثل بريطانيا - سويسرا - أمريكا - إيطاليا .

مع أن إيطاليا كسائر دول حوض البحر الأبيض عالية الصوت .
بل هناك الآن اتحاد دولي ضد الضوضاء تكون سنة ١٩٥٩ .

ان الذى يرفع صوته انما يغطى صخباً في داخله .

ان النفس المطمئنة يأتى حديثها من قرار مكين .

والصوت الهادئ أكبر قدرة على الاقناع والامتناع وأعق أثرا . وقد يبلغ الهمس بالخفوت ما لا يبلغه الضجيج والعجيج من مواطن الاصغاء .

رمضان في القاهرة

تقاليد واستقباله :

تبدأ الاستعدادات لرمضان قبل موعده بتوفير متطلباته التقليدية •
من طعام وشراب وترويح عقلي أيضا تضطلع به الاذاعة والتلفزيون جنباً
الى جنب مع الغذاء العقلي والوجداني من برامج الدين والعلم والفن •

أستطيع أن أقول ان رمضان بصورته الحالية رمضان حديث ولكن
رمضان استقبله في طفولتي يجرى على سنن آخر ٠٠ صورة أخرى • كانت
القاهرة ومدن الأقاليم وقراها تحتفل برؤية هلال رمضان فيخرج موكب
من أرباب الحرف كل حرف على عربية مزينة بالآلات الحرفة ومعطياتها
وفوقها الحرفيون يمارسون حرفتهم ولكن بطريقة رمزية تحية منهم
للاحتفال ، وتنفن كل عربية في زينتها من اعتداد أصحابها بحرفتهم
واعزازهم في الوقت نفسه بـرمضان الذي يخرجون لتحيته • وتسير
في الموكب أرباب الطرق الصوفية يحملون أعلامهم وشعاراتهم وفرق
الجيش والشرطة والموسيقى وتطلق المدافع طلقاتها على صياح الأولاد على
أثر كل طلقة (هيه) ويمشى هذا الموكب في الشوارع حتى يفضى الى
المحافظة في القاهرة أو الى المديرية في عواصم الأقاليم أو الى بيت البية
المأثور في المدن حيث يوزع الشربات وتطلق الزغاريد على طريق الموكب
حتى اذا حل المساء أضيئت المآذن جميعاً احتفالاً بشهر الصوم وهلت
الفوانيس الصغيرة الجميلة الملونة وارتفعت أناشيد الأطفال ، وحوى
يا وحوى رحى يا شعبان جيت يا رمضان ٠٠ يا حيا •

بنت السلطان لابسة قفطان أحمر يا حيا •

ومرة أخضر ومرة أصفر وبعد كل لون ينشد الأطفال : يا حة •
وبهذه المناسبة وحوى تفسر بأنها كلمة مصرية قديمة من حوى
يحوى أى عمل كما يعمل الحوام •• ربما •
كما كانت تتردد أغنية :

يا رمضان يا ورق أخضر	أيامك زى السكر
بتيجى لنا بنفكر	أيه تعمل فيك يا رمضان
أحنا الشبان البكر	دانتا بتجينا معطر
وبتعزنا فيك كمان	يا رمضان قويينا
دا صيامك بيهينا	وع المساجد بيودينا
ونصوم ونصلى فيك يا رمضان	يا رمضان يا ورد جميل
وبينور فيك القناديل	وبتفرح كل الأطفال

وتذكرنى هذه الأغنية بأغنية قديمة موغلة فى القدم حين كان قداماؤنا
يستقبلون النيل فى استهلال فيضانه بقولهم مما رواه ارمان فى كتابه
(أدب مصر القديمة) •

« شباب رعاياك وأطفالك يهللون فرحا بمقدمك والرجال يحتفلون
بك كملك راسخ القوانين عندما يوافى الوجه القبلى والوجه البحرى ••
ويروى الناس من مائه ويقر الحزين ويبتهج كل قلب » •
ان مصر وادى النيل ووادى الدين •

أما الكبار فكانوا يحيون رمضان بذكر وقراءة القرآن • كانت
البيوت الكبيرة « تسهر » أى يتفق كل منها مع أحد القراء المشهورين او
« المصيتين » كما يقولون لحياء ليالى رمضان بتلاوة آى الذكر الحكيم فى
بيته وبين زواره •• أما البيوت الآن فتكتفى عادة بسماع القرآن من
الأذاعة ولا يحرص على هذه العادة الا بعض العائلات الكبيرة فى الريف أو
بيوتات البلاد العربية الذين يستقدمون كبار القراء المصريين لحياء رمضان
فى قصور الملوك والأمراء والوجهاء •

ويعتقد الناس فى رمضان أن الجن تحبس فيه ببركته ليكتمل
خيرهم • انهم يعتقدون أن رمضان ملك من الملائكة وانه اذا حل قيد الغفارىت
والجن فى مقام من النحاس فيرتاح الناس منها طول الشهر ويتحركون
فى أمان حتى فى الظلام •• وينطلق أهل القرى خاصة وينتقلون بين قراهم
من قرية الى قرية للزيارة والمودة دون خوف فبركات رمضان تحبس

العفاريات التي يتوهمون انها تترصد بالسائر في الأركان المهجورة على طول الطريق .

وتعدى هذه الأوهام الأطفال بالطبع فيهللون على حريتهم أو براحتهم في رمضان وهم يهللون فرحين .

يا رمضان يا عود كبريت يا مقيد كل العفاريات

وهم أنفسهم عفاريات مطلقة السراح .

وطالما رددت هذه الأغنية في رمضان فقد كنت أخاف من الظلام وكان بيت جدتي كبيرا على السقوف كثير الدهاليز والمسروقة على السلم وكنت أثناء صعودى أحس دقات قلبي تسرع عند هذه المسروقة فأتهب السلم عندها نهبا حتى أنجو من العفريت الذي كنت أتوهمه يسكن في المسروقة . لهذا كان ينتهي يومى في المساء فلا أنزل السلم الا بصحبة الكبار . . . وكانت هي تخشى على من النزول في المساء فتزكى في نفسى دون أن تقصد هذا الوهم . أما في رمضان فكانت تسمح لى وأسمح أنا لنفسي أن أمسك فانوسا وأشارك الأطفال في فرحتهم وغنائهم . ما أجمل ليالى رمضان وما أجمل ليالى القاهرة .

هكذا كان يستقبل رمضان بأغاني الفرحة به في غير تكلف . . . أغان ليست مصنوعة بل تلقائية نابعة من الوجدان الشعبى على سجيته فهي ليس لها مؤلف واحد ، وبالطبع لا يعرف قائلها . وأصدق ما يكون الشعب المصرى حين يعبر عن احساسه بأثنين : الدين والنيل ؛ وأصدق ما تكون المشاعر حين تنبع من القلب ابتهالات لله أو فيوضات من بحر النيل .

ورمضان يتميز في كل شيء عن الشهور الأخرى : في الطعام وتوقيته ونوعيته . . في السحور . . في الأذان . . في النوافل . ففي الطعام ، يفضل كثيرون أن يتناولوا شرابا ساخنا أو شرابا محلى بالسكر . وغالبا ما يكون قمر الدين وفاكهة طازجة أو مجففة ثم يؤدون صلاة المغرب وبعدها يتناولون فطور رمضان التقليدى الذى تتفنن فيه ربة الدار وتحشد له من أول يوم . . ومهما تنوع وتعدد فان الفول المدمس مرموق في موائد رمضان في الفطور وهو طبق أساسى في السحور .

ومن تقاليدات رمضان الكنافة والقطايف .

وفي رمضان يفضل كثيرون تناول فطوره في بيوتهم لحاجة الانسان الى الراحة بعد صيام طويل خاصة اذا جاء رمضان في فصل الصيف .

ويحكى ادوارد لين الذى كتب كتابا ضخما عن عادات المصريين وتقاليدهم فى القرن التاسع عشر أن البيوت الموسرة كانت تضع كرسى صينية الطعام قبيل المغرب فى غرفة الاستقبال بمنازل الطبقتين العليا والوسطى وتوضع على الصينية ألوان من الفاكهة .. ولكن الذى استوقفنى قوله انهم كانوا يضعون عدة ، قلال من الماء المحلى بالسكر ومعها كوبتان زيادة عدد الزائرين المدعوين ، ليشارك فى الشرب كل من يقدم على غير انتظار .. الذوق مافاتش باب النصر .

وتبدأ الزيارات بعد ساعتين على الأقل .. وكم يحلو السهر فى رمضان والقاهرة معا .. ان ليالى القاهرة على مدار العام فاتنة ساحرة فما بالها فى رمضان حيث يتمتع الحديث ويشوق ، وتصفو النفوس وتروق ، ويتلألأ الليل بالنور والسباحات والقراءات والأذكار فى ناحية وقصص السماء فى ناحية أخرى . وتستروح القاهرة وتحلو الحلوة أكثر وتغدو بكل شيء لا تقاوم .. انها كاسمها ، القاهرة .

أما السحور فان أهم ما فى السحور « المسحراتى » والمسحراتى له فى حياتى دور .. وان كان مسحراتى بلدتنا فى الصعيد لا مسحراتى القاهرة .. كان المسحراتى فى طفولتى الباكرا فى مغاغة شيخ عذب الصوت حسن السمات على غير عادة المسحراتية فى الأرياف . حتى الطلبة كانت منه رقيقة شجية كأي صوت يسمع فى سكون الليل .

كنت فى السابعة من عمرى أو أقل قليلا .. وكنت أنتظر مروره للصوت الجميل الذى يقول فى مدح الرسول :

وأحسن منك لم تر قط عيني وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرا من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

ولم أكن فى البداية أفهم كل كلمة ولكن الوزن بموسيقاه والصوت بحلاه والروحانية السائدة فى المكان والزمان .. كل هذا كان يشجعنى بل كثيرا ما كانت تدمع عيناي منه . وبعد أن يبتعد الشيخ أحمد المسحراتى ، أعود الى سريرى وأستأنف النوم .. وقد كان أهلى يحسبون يقظتى فرحا بالسحور أو رغبة فيه أو حرصا على أطايبه خاصة الكنافة التى كنت أحبها ولا أزال ولكن هذا كله لم يكن السبب .. لقد تعلمت من الشيخ أحمد على البعد وقع ايقاع التعبير الجميل والصوت الجميل .

ومنذ ذلك اليوم عشت للكلمة وللجمال أنشده فى اللفظ والمعنى والصوت والصور والحياة والكون ، منذ ذلك اليوم دون أن أعرف

ارتبطت حياتي بفن الأدب وفن الموسيقى .. لقد بدأت مجاولاتي الأولى في التعبير في الثامنة من عمري . وبدأت أحفظ القرآن الكريم . وعمق في نفسي الاحساس بالكلمة وحاشيتها .. نعم ان الكلمة ملكة لها عرش وتاج .

أما في القاهرة فالمسحراتي صورة أخرى مختلفة تماما ولكن لها طرافتها هي الأخرى .

ان المسحراتي يشكل ، لا أقول ظاهرة في رمضان ، لكن يشكل على الأقل احساسا لطيفا فهو يطوف بالمنازل بيده طبله يدق عليها . أمام كل منزل . لكل حي في القاهرة ، مسحراتي خاص به وهذا أول فرق بين القاهرة ومدن الأقاليم وقراها . فهناك غالبا ما يكون المسحراتي واحدا أما القاهرة وهي بكل المقاييس « الكبرى » حتى قبل أن نطلق عليها نحن هذا الاسم .. لقد قرأت في مجلة العمارة الانجليزية الصادرة في أغسطس سنة ١٩٧٨ أن القاهرة في القرن الرابع عشر الميلادى حين كان تعدادها نصف مليون كانت مساحتها أربعة أضعاف مساحة لندن وخمسة أضعاف مساحة باريس .

ان المسافرين الغربيين كانت تروعهم القاهرة باثنين : حجمها ونفاسها . ماذا أقول يا سيدة المدائن ؟ أحسب أنها ولدت (القاهرة الكبرى) من أول يوم ولم لا ؟ ألسنت منف الجميلة والفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة ؟

أليست آلاف السنين لا ألفا واحدا كما يقول بعض منا ؟ أليست القاهرة عمرنا منذ كان لنا عمر ؟ ويمضى موكب الأجيال وكل جيل يودعها العمر وحصاد العمر ثم يمضى وتظل القاهرة .

للمسحراتي :

ويأتي رمضان كل عام ويكر سريعا كما تقول جدتي وتعلل هذا بأن أيامه معدودة .. وتظل القاهرة ، كل عام تسمع أذنها المسحراتي ونفرح نحن أطفال القاهرة به ، ولكن القاهرة تبتسم . كم آلاف الرجال سحروها وبقيت هي الساحرة الوحيدة سحرت حتى الغرباء بل سحرت التاريخ الذي وقف عندها طويلا فكتب عنها الشرق والغرب ما لم يكتبه عن مدينة أخرى بنفس القدر والمقدار .

وبعض سحروها ما أفعله الآن .. أريد أن أتكلم عن المسحراتي فإذا بى أتكلم عن الساحرة .

فى لىالى رمضان يباشر نفر من الرجال عملهم الموسمى أى تذكير الأهالى ، وما هم ناسون بالسحور • فالمسحراتى يطوف بيده طبله يدق عليها أمام كل منزل دقة تقليدية معينة من الطريف أن ادوارد لين لم ينس أن يكتب لهذه الدقة نوتة ايقاع •

ويقول لا اله الا الله ثم يرد على نفسه قائلا محمد الهادى رسول الله •

ويسمى المسحراتى أصحاب الدور • طبعاً يكون عرف جميع أسماء رجال الحى بطريقته الخاصة • يذكر المسحراتى اسم صاحب البيت قائلا أسعد الله لىالك فيفتح مغالق الاصغاء فليس أحب الى الانسان من سماع اسمه مقرونا بالتحية ومن الطريف أن المسحراتى يحيى أصحاب البيت من الذكور معددا أسماءهم ولكن النساء لا • • لعله احتشام يستثنى منه الفتيات الصغيرات فانه يقول (أسعد الله سبت العرايس فلانة وطبعاً الطبله شغالة بعد كل اسم • • بعد كل تحية وما أكثر تحيات المسحراتى المحفوظة عن ظهر قلب فهو يدعو للرجل بأن يقبل الله صلاته وصيامه ويدعو الله أن يحفظه ويبقيه لكل عام فاذا كان الرجل ذا حيثة فان المسحراتى لا يكتفى بالدعاء الموقع على الطبله بل يضيف اليه أو يزيد عليه أغنية طويلة عريضة مسجوعة وقصة الاسراء والمعراج وقصص معجزات أخرى • • والطبله أثناء هذا لا تلتقط أنفاسها بل تأخذ دورها بعد كل جملة بعد كل قافية هذا اذا كان ما يقوله مقفى كما يتوهم ولكنه فى الحقيقة ينطبق عليه ما قاله الأستاذ العقاد فى الشعر الحر حين أطلق عليه جملة الطريفة (ماذا عندهم من خوارق ومعان ولم يستوعبها الشعر المقفى متعللين بالشعب لا معنى ولا يحزنون • • قصارى الأمر أنهم - يقصد أدعاء الشعر - لا وزن لهم وهو شعب موزون) •

ومن طرائف المسحراتى التى يرويها الأثرى المرحوم حسن عبد الوهاب فى كتابه (رمضان) قول المسحراتى :

أخلاق

ومن طرائف المسحراتى التى يرويها الأثرى المرحوم حسن عبد الوهاب فى كتابه (رمضان) قول المسحراتى :

يا غفلان وحد ربك	وبالتقى عمر قلبك
ما يوم تقلق على رزقك	دا ربنا عالم بالحوال
يارب قدرنا على الصوم	واحفظ ايماننا بين القوم
وارزقنا يارب باللحم المقروم	أحسن يارب ماليش أسنان

وقوله :

أنا المسحر جيت أطبل لكم
وفى كل ليلة لى على كل بيت
ولى عديّة عندكم كل عيد
آجى أصحيكم وأنتم نيام

حافظ أساميكم صغير مع كبير
الى من الذمة خرج للفقير
الكعك وكفوف الشريك والفطير
وقت السحر عن كل خير غافلين

أحياكم المولى

أنا المسحر جيت معى طبلىتى
وأحكى حكاية الفار وأقول ما جرى
الفار جعل بيت الفقير مسكنه
وحرمه رغيّف يخبزه ابن الحرام

وأحكى حكاية الفار وأقول قصته
بينه وبين القط يوم وقعته
وكل يوم يسطى على مشنته
وأكل الحرام خلاه ملظلف سمين

ويظل يقص حكاية القط مع الفار الى أن وقع الفار بين مخالبه •
ثم يختتم بقوله :

أدى جزاء من غرته شهوته
وإدى جزاء من راح بنفسه الى
وإدى جزاء من كان يصدق جميع
واختم حكايتى بالصلاة والسلام

حتى هوت به فى مهاوى الهوان
موته وخد له من عدوه الأمان
ما يسمعه ويميل لمذح اللسان
على ابن راحه خاتم المرسلين

وأخياكم المولى الى كل عام
وكل عام وأنتم بخير طيبين

كان المسحراتى لا يذكر النساء والبنات فى موال كل ليلة الا أن
جدتى كانت تصر على أن يذكر اسمى ويدعو لى بل يطيل فى الدعاء ••
كانت ترانى فى طفولتى قيمة كبيرة فى نظرها ولا أدري كيف وكانت
لا تتخرج أن تسوى بينى وبين الكبار وأنا طفلة ألهو •• بل تفرض هذا
على من يخطط بها أو يتعامل معها حتى فى الترام أو الأتوبيس كانت تصر
على أن آخذ كرسيًا وعندما يبتسم الكمسرى تقول له وكأنها تفحمة اقطع
لها تذكرة •• والذى يحدث اننى كنت لا أبان من الكرسي •• ولكنى بحكم
التذكرة أقفز وأتقافز من الفرحة وأطل من النافذة وأحيانًا أصف ما أرى
وهكذا عرف أتوبيس القاهرة ، مبكرا مديعة صغيرة •• وتسمع جدتى وهى
طروب لكل كلمة حتى ولو كانت غير ذات معنى شأن الأطفال •

وبالطبع كنت أفرح بهذه العناية التى تخصصنى بها وأفرح أكثر
بترديد المسحراتى اسمى دون سائر أطفال الشارع وأقبلها تارة وأدعو

لها أنا وأمطرها بالأسئلة حيناً وأثناء هذا تغمرنى هى بأطاييب رمضان من الطعام .

وكم لأهل القاهرة من قصص مع المسحراتى . يروى ادوارد لين الذى عاش فى القاهرة فى القرن التاسع عشر وكتب عنها كتابه الكبير .
The Manners and Customs of The Modern Egyptians.

أى أساليب وعادات المصريين المحدثين . يعكس أن نساء الطبقة المتوسطة أى بنت البلد . كانت النساء يعمدن الى وضع قطعة فضية من النقود فى ورقة تلقى بها احدهن من النافذة الى المسحراتى ولما كان الوقت ليلاً والمسحراتى بالطبع لم يذهب عيون زرقاء اليمامة أو ليس صقرا حاد البصر فان السيدة تشعل الورقة ليرى المسحراتى مكان سقوطها فيستدل عليها وينقض عليها ويفضها ويأخذ القطعة الفضية يدسها فى جيبه ويرفع صوته بقراءة الفاتحة لصاحبته . وقد يكون منشرحا فيروى قصة قصيرة تمتع النساء .

ما أطعم بنت البلد وما أحفل رمضان القاهرة بالطرائف .

المسحراتى بعض زبائنه يطلبون اليه أن يمر قبيل الامساك أى قبيل الفجر ليذكرهم ان كان فاتهم الطعام فيتداركون ما فات وفى هذه الحالة يقرع المسحراتى على الطالب البساب ويأخذ فى النداء عليه حتى يجاب . . أما الضجة التى تحدث من قرع الأبواب فليست واردة فى ذهن المسحراتى أو من يطلب اليه هذا الفاصل من العزف المنفرد .

وعذر بعض الناس أن السحور عندهم يشكل الوجبة الرئيسية اذ يفضلون فى الفطور غداء خفيفا ويركزون على السحور ليقبهم النهار كله . على كل حال الناس فى رمضان كل شئ تقبله : الضجة والصمت فرمضان كما تقول جدتى ضيف عزيز من السنة للسنة والضيف مكروم .

أنتقل الآن الى الأذان . وهو من الأشياء الجميلة فى رمضان . ففي رمضان يؤذن المؤذنون أذانا خاصا به قبل منتصف الليل يسمى آذان « الأبرار » وهذا الأذان قبل منتصف الليل ساعة وأحيانا بساعة ونصف أو بنصف ساعة فقط اذا كان الوقت صيفا الليل فيه قصير .

ويتكون هذا الأذان من الآيات الكريمة التى تضمها سورة : الانسان « ان الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا » عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا . يوفون بالندى ويخافون يوما كان

شره مستطيرا • ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا • انما
نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » •

هذا آذان ما قبل منتصف الليل أما الآذان الآخر الخاص برمضان
فهو آذان بعد منتصف الليل بنصف ساعة ويسمى (السلام) وهو
المجموعة من الصلوات على الرسول ، تشبه تلك التي تقرأ قبل صلاة
الجمعة ، ولكنها ليست هي بالطبع •

كانت القاهرة تتمتع بهذه التقاليد والروحانيات يوم كانت
المآذن تعلو على المنازل تنللاً بالنور ، وينهل منها الآيات كالنور فترتاح
من استرواح وطمأنينة • ولكن القاهرة اليوم ، ترتفع فيها العمارات
الحديثة ، وتمعن في الارتقاء حتى تداني السحاب • ولم تعد العين تميز
المئذنة من البيوت الا في الأحياء الشعبية • لا أريد أن أدخل الآن في
عشوائية البناء والتخطيط نحن في رمضان •

وفي معرض الحديث عن الآذان أذكر آذان الفجر يؤذن قبل مواعده
بوقت كاف لتنبية الغافل عن السحور ، رحمة وحنانا • وهناك آذان
آخر قبل الامساك • ولأمر ما • تبدأ الفاتحة أم الكتاب ومثلها بالبسملة
بصفة الرحمن الرحيم من دون سائر صفاته عز وجل وهي كثيرة لا يحصيها
عد أو وصف وان قالوا تسعة وتسعين اسما صفة • انه تأكيد للرحمة
وكان من الممكن أن يقول العظيم مثلا أو الجبار ولكنه اختار الرحمة دون
سائر أسمائه الحسنى •

وقد تأديت القاهرة بأدب القرآن وإستارت القاهرة المتحضرة
الحاضرة سيرته واشتارت جناه فالأسماء فيها عبد الرحمن •
عبد الرحيم • عبد الودود - عبد الشكور - عبد العليم • عبد السميع •
عبد الغفار حين تسمى بلاد أخرى عبد الجبار • عبد القهار • بلاد كانت
صاحبة حضارة أيضا ولكن الرحمة والسماحة أفق رفيع • قد تتسم
بالجهامة حضارة وقد تتسم حضارة أخرى بالسماحة والدمائة من رحمة
تظلل الانسان والحياة • فاذا بها مستقرة وقريرة • وهكذا كانت حضارة
مصر قبل الأديان • ولهذا عانقت مصدر الأديان واعتنقتها في نقاء واخلاص
بلغ حد الفداء في موقعة الشهداء حين المسيحية وفي مواقع الصواري
وحطين وعين جالوت في الاسلام فوق ما أهله مصر في السلم وأسدته
في العلم وأضفته في الفن • مرة أخرى أقول انها وادي النيل ووادي
الدين معا •

المرق والحلق والخلق :

كانت جدتى كسائر سيدات جيلها تقسم رمضان أقساما ثلاثة : فتقول انه عشرة مرق وعشرة حلق وعشرة خلق وأسألها طفلة في فضول ماذا تعنى ؟ فتقول ان الناس فى الأيام الأولى فى رمضان يعتنون بالطعام تحية وحفاوة بـرمضان حتى اذا ألفوا المواعيد الجديدة وأصبحت عادية ، بدأ الناس يعدون العدة للكعك ، فاذا فرغوا منه فى أواخر الثلث الثانى من رمضان ، بدأوا يعدون العدة للعيد فيشترون الملابس الجديدة بالأولاد الأسرة وهذا معنى :

عشرة مرق وعشرة حلق وعشرة خلق أى قماش وملابس .

لقد اعتنقت مصر الاسلام ولكنها فيه تمارس عاداتها القديمة حتى ولو لم يدر بعض الناس فعشرة المرق تذكرنى بحاملات القرايين من خير الأرض الطيبة الذى تحسر عليه اليهود بعد الخروج فقالوا كما جاء فى القرآن الكريم « لن نصبر على طعام واحد فادع ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفولها وعدسها وبصلها » .

أما عشرة الحلق فهو كعك العيد الذى تحتشد له البيوت المصرية دون سائر البلاد العربية بل ان المصريين يصرون على نقش الكعك بطريقة خاصة بمنقاش الكعك نقوشا خطوطا دائرية على شكل قرص الشمس هو النقش نفسه الذى صنعه ايزيس لابنها حوريس . وأذكر فى طفولتى أن والدى جاء جدتى بـقالبين مختلفى النقش توضع عجينة الكعكة فى القالب وتضغط على موضع فيه فتخرج الكعكة منقوشة جاهزة وبسرعة وكان يظن أنه سهل مهمتها وانها ستسر بالهدية ولكنها أخذت القالبين ودعت له ولأولاده اخوتى وأنا ثم ركنت القالبين وأخذت تنقش بالمنقاش . تصنع قرص الشمس المعهود .

وكما كانت تزكى كل عمل أو قول لى ، أيدت بالطبع رأيها فى المنقاش وان كان السبب الدفين عندى أنها تشركنى فى هذه العملية المسلية فتعطينى الكعكة بعد تسويتها بيده وباليده الأخرى تعطينى منقاشا وتدعنى أنقش به على العجينة . وكم كانت هذه العملية تمتعنى انها لعبة أخرى فى نظرى وأرسم رسوما مضحكة أحيانا ولكنها تتقبلها فى غبطة بل تمدحها فأسوق فيها .

ما أكرم رمضان وما أطيب جدتى .

ويقال ان أكثر العهود عناية بالكعك ، الدولة الاخشيديية التى .
أثر عن وزيرها أبى بكر محمد بن على المادراى أنه عمل كعكا حشاه
بالدنانير الذهبية أطلقوا عليه وقتئذ اسم (افطن له) أى حذر ٠٠٠ فذر
فكان الجنيه ٠ وهكذا كما يبدو سبقتنا الدولة الاخشيديية الى فوازير
رمضان ٠

وكان للدولة الفاطمية طباخون لهم شهرة فى الكحك ورثتهم الدولة
الأيوبية ٠ ومن هؤلاء طباحة كانت تتفنن فيه حتى أطلق على كعكها (كحك
حافظة) ٠

لقد تحدثت عن القوالب المنقوشة التى قدمها والدى الى جدتى
تيسيرا لها فى عمل الكحك وكيف ركنتها وأصرت على المناقش ولكن هذه
القوالب المنقوشة والمكتوبة ترجع هى الأخرى الى عهد بعيد ٠ ففى متحف
الفن الاسلامى قوالب منها يحتفظ بها المتحف ٠ ومن الطريف أنه يكتب
على بعضها كل هنيئا ٠ كل واشكر ٠ بالشكر تدوم النعم ٠

ولحن المصريين نتعاجب بالكعك ونتهادى به سواء فى القاهرة أو
الريف ، وطالما حملتنى جدتى أطباقا الى جيرانها وأحبائها وتحفظنى السلام
منها اليهم الذى كنت أبلغه مقرونا بكلمة (نينا تقول لك كل سنة وائتى
طيبة) كما كان جيرانها يرسلون اليها بدورهم أطباقا محملة بالكحك فى
عملية تبادل وتواد وكذلك يفعل أهل مصر والقاهرة وقبل زمن جدتى .
بزمان فان محمد ابن السعودى الخياط وكان يسكن درب الأتراك يجوار
الأزهر فى القرن الثامن الهجرى أو الرابع عشر الميلادى يقول انه جاءه
فى عيد الفطر من الجيران أطباق كحك على عادة أهل مصر ملا بهسا
زيرا كبيرا ٠

ووالد جدتى نص فى وقفيته على توزيع الكحك والفطائر فى
العيد على الفقراء والأيتام ٠ وكانت حريصة على تنفيذ هذه الوصية حتى
أنها كانت تصنع حلوى وكحك البيت فى يوم وفطائر وكحك الوقفة فى
يوم آخر تمسكا بحرفية الوقفية ٠

وكثير من الوقفيات الأخرى كانت تنص على توزيع الكحك والفطائر
ومنها وقفية الأميرة نثر الحجازية والتى نصت فيها على توزيع الكحك الناعم .
والحسن على موظفى مدرستها التى أنشأتها سنة ٧٤٨هـ - ١٣٤٨م ٠

كانت الأسر المصرية تستبقى فى الآخر قطعة من العجين فتعمل
لأطفالها كعكا خاصا لكل بنت عروسة ولكل ولد حصان ٠ وكانت جدتى

تعمل عرائس من الكعك لا عروسا واحدة وأطلب منها حصانا أيضا
فلا تمنع بل تلبى فى سرور • وهكذا أظفر فى العيد بما لم يظفر به طفل
أو طفلة • ويبتسم الكبار حين يلحون حرصى على تجنب الدسم من الطعام
لأنهم يعرفون القصة • • وأنى شبعتم طفلة الى ما فوق الامتلاء من ينى
حبيبتي جدتي •

ويبدو أن قولنا « رمضان كريم » حقيقة ماثلة • فهو كريم جدا فى
الليل على الأقل اذ أن قومنا يتهادون أيضا بالقطايف والكنافة فضلا
عن الكعك •

القطايف :

وكما تعودت الأسر المصرية أن تهدي الكعك ، كانت تهدي القطايف •
ومن طرائف الشعر فى هذا الباب ، قول ابن نباتة المصرى :

أقول وقد جاء الفلام بصحنه

عقيب طعام الفطر يا غاية المنى

بعيشك قل لى جاء صحن قطايف

وبح باسم من أهوى ودعنى من الكنا

ويقول آخر : (المعلم المرصص)

وحقك ما أوليتنى من قطايف

الذ وأحلى من وصال القطايف

وقد ضمنت مثل العتاب حلاوة

ألم ترها ملفوفة كالصخائف

ويقول الشاعر المصرى أبو الحسن الجزار فى خفة دم مصرية :

سقى الله اكنايف الكنافة بالقطر

وجاد عليها سكر دائم الدر

وتبى لأوقات المخلل انها

تمر بلا نفع وتحسب من عمرى

ويقول ابن نباته :

رعى الله نعماك التي من أكلها قطائف من قطر النبات لها قطر
أمد لها كفى فأهتز فرحة كما انتفض العصفور بلله القطر

ويقول سعد الدين بن عربي :

وقطائف مقرونة بكنافة من فوقهن السكر المذرور
هاتيك تطربني بنظم رائق ويروقني من هذه المنثور

ويقول أبو الحسن الجزار مرة أخرى :

تالله ما لثم المراشف كلا ولا ضم المعاطف
بالذ وقعا في حشاى من الكنافة والقطائف

ومن الطريف أن تاملنا جلال الدين السيوطي له رسالة طريفة عنوانها
(منهل اللطائف في الكنافة والقطائف) أنه حدث في القرن العاشر الهجري
أن ارتفعت أسعار الحلوى فرفع المصريون شكاة منظومة الى المحتسب وكان
النثر لا يؤدي ! ولكنها الفكاهة المصرية التقليدية . ماذا تقول هذه
الشكوى الطريفة ؟

لقد جاد بالبركات فضل زماننا	بأنواع حلوى نشرها يتضوع
حكنتها شفاء الغايات حلوة	الم ترني من طعمها لست أشبع
فلا عيب فيها غير أن محبها	يبدد فيها ماله ويضيع
فكم ست حسن مع أصابع زينب	بها كل ما تهوى النفوس مجمع
وكم كمكة تحكي أساور فضة	وكم عقدة حلت بها البسط أجمع
وكم قد خلا في مصر من قاهرة	كذاك المشبك وصله ليس بقطع
وفي ثوبه المنفوش جاء بروثق	فيا حبذا أنواره حين تسطع
وقد صرت في وصف القطائف	هائما تراني لأبواب الكنافة أقرع
فيا قاضيا بالله محتسبا عسى	ترخص لنا الحلوى نطيب ونرتع

فانوس ومضان :

تكلمت عن الكنافة والقطائف في الشعر .

وهي ليست وحدها التي حظيت بتسجيل . لقد تكلمت عن فوانيس
الأطفال . ولكن الكبار أيضا لهم فانوس ، هو فانوس السحور . وكان
يعلق على المنارات مضاء حتى السحور ، ثم يطفأ إذانا بالامساك .

فانوس السحور هذا تبارى الأدباء والشعراء فى وصفه فواحد يقول :

أحِبُّ بفانوس غدا صاعدا وضوءه دان من العين
يقضى بصوم وبفطر معا فقد حوى وصف الهالين

وأنشد ابن ظافر :

أست ترى شخص المنار وعوده عليه لفانوس السحور لهيب
تراه يراعى الصبح ليلا فان دنا طلوع صباح حان منه غروب
فهل كان يراها لعشيق ففراذ درى أن رومى الصباح قريب

ولم آخر الخنساء قائلا :

هذا لواء سحور يستضاء به وعسكر الشهب فى الظلماء جرار
والصائمون جميعا يهتدون به كأنه علم فى رأسه نار

ويقول ابن نفلويه :

نصبوا لواء للسحور وأوقدوا فى رأسه نارا لمن يترصد
فكأنه سبابة قد قمعت ذهباً وقامت فى الدجى تتشهد

وأفرح بالفانوس الملون صغيره ، وأقرأ الأدب العربى كبيرة ، ويستقر
هذا كله فى أعماقى وأرعاه تحية لهذا الشعب الذى نماني وتحية للقاهرة
فكلما جاء رمضان حرصت على الفانوس الملون يتوسط مائدتى وأشعل
فيه الشمعة ويبعدو فى عيني أبهى نورا من النجفة الكبيرة التى تسدل
من السقف فوقه . . ويقول الفانوس ويروى بغير حروف . . ويفهم عنه ،
مثلى ، ضيوفى ، وان لم يقدر هذا أولادى الذين يرقبون ما يجرى فى صحت
تأديا وهم معذورون فلم تعرف طفولتهم الفانوس كما عرفته ، ولم يسمعوا
فى الزمالك التى ولدوا بها ، المسحراتى ، الذى سمعته فى أحياء القاهرة
الشعبية ولكنهم الآن ، ألفوه ، ودخل فى وجدانهم فهم لا يسمعون سوى
الا حديثا عن مصر والقاهرة فإذا شرعت فى أعداد المائدة خفوا الى
الفانوس فجاءوا به ووضعوه وسط المائدة تقليدا رمضانيا فى بيتنا يتنفس
طيب مصر وعرف القاهرة ، ويطوفون معى أوروبا ثم يعودون أشد تمسكا
بمصر وأشد تعلقا بالقاهرة .

الخوانيت فى رمضان :

كان سوق الشماعين فى النحاسين يستعد استعدادا كبيرا لمقدم

رمضان فتعلق على وجهات الحوانيت وأمامها وعلى جوانبها فوانيس ،
وشموع مختلفة الأحجام أكبرها حجما ووزنا شموع المواكب الكبيرة •

والحوانيت فى رمضان تظل مفتوحة الى ساعة متأخرة من الليل •
أما سوق السكرية فكان البدلون أى أصحاب البقالة يفرشون على أبواب
محالهم اليا密斯 وقمر الدين وكانت رخيصة السعر فى متناول الجميع ••
حتى كانت تقدم للضيوف فى رمضان للتفكه والتسلية بل كانت تبدر
على الأطفال الذين يسيرون فى زفة بالفوانيس •

فى رمضان الحوانيت مفتوحة والبيوت الأنوار فيها ، ساهرة والقراءات
ذاكره سارية •• وكان الصيام أشد حرمة يحرص عليه الجميع ، بل
يشجع عليه الأطفال فى المدارس والبيوت حتى المفطر لسبب يستتر فلا
يجاهر بالفطر والا لحقته نظرات الزراية حتى من الأطفال الذين كانوا
ما يكادون يبصرون مفطرا حتى يعلو صياحهم •

يا فاطر رمضان يا خاسر دينك •

ومن الطريف أن الحكومة كانت تعاقب موظفيها الفاطرين بغير عذر
شرعى ، بل كان اخوتنا الأقباط لا يأكلون خارج بيوتهم فى نهار رمضان
احتراما لشهر رمضان ورعاية لشعور المسلمين الصائمين •

وكانت المطاعم تغلق أبوابها فى رمضان وتنتهز الفرصة فتقوم
بعملية تجديد وتنظيف • وكانت المقاهى تغلق نهارا لتسهر الليل كله
حتى مطلع الفجر •

كان رمضان شهرا جامعا وممتعا •• شهر الصيام والقيام والاطعام
بل الاغداق فيه على المعوزين • كان شهر التسبيح والترويح والتفاريح ••
كان شهر القراءات والابتهالات والطيبات •

كانت المساجد الكبيرة فى القاهرة ، مرادا وموردا فى رمضان
كان كل منها لؤلؤة فى جوف الليل • كانت تمتلىء بقاصديها ••• انها
بيوت لله يذكر فيها اسمه ويرفع ذكره ويتقرب اليه بالصدقات •••
بالعطاء والصفاء ••• بالعلم ••• بالاستماع •

وتزدحم القاهرة بعد الفطور بعد أن تكون الشوارع قد أقفرت من
السائرين قبل مدفع الافطار • كان الامام الحسين والسيدة زينب
والسيدة نفيسة والسيدة سكينة والامام الشافعى والامام الليثى مزارا
ودارا ومنارا •• وتعتز العواصم الاسلامية بأحد أبناء السلالة الطاهرة
وتعتز القاهرة بصفوة أهل البيت •

ويطلق أهلها عليها مصر المحروسة ويحفظون عن النبي عليه السلام قوله (مصر كنانة الله في أرضه من أرادها بسوء قصمه الله) وفي قول (من أرادها بسوء أكبه الله على وجهه .)

وفي كل مرة تعلق مصر المحنة ويزول الشر عنها .

وفي كل مرة يسلم لنا وجه القاهرة .

فستان العيد :

نحن الآن في العشرة الأخيرة من رمضان . أتذكرون ما رويته عن تقسيم جدتي للشهر : عشرة مرق وعشرة حلق وعشرة خلق ٠٠٠ أى ملابس جديدة لأطفال الأسرة . وهنا أقول ان جدتي كانت تتحننني بفستان جميل جاهز من عمر أفندي وحذاء جديد وشراب أبيض قصير ولا يتجاوز هذا كله جنيهين . ويأتى دور الشرايط الملونة وكان البائع يقترح عليها أن تأخذ مترا ونصفا تقسمه للضيفتين نسيت أن أقول انها كانت تربي جسمي ، وتربي شعري ، وتزهر بأنه صار على يديها ضفيريّين طويلتين، وتربي نفسي يوم عهدت به الى قريبها شيخ مشايخ القراء لتحفيظ القرآن الكريم .

كانت تصر على أن يقطع البائع مترين لكل ضفيرة متر لتصنع لي فيونكات كبيرة . كان حبها لي يتبدى في كل تصرف من أصغر الأشياء الى أكبر الأشياء . نبع حنان هي لا يزال يتدفق في قلبي حتى بعد طول الغياب .

وكلما دفعت ابنتي غاليا في ثوب لها أو حذاء أتذكر فسائتي الجاهزة التي كانت تشتريها لي جدتي بقروش ٠٠ وتكاد ابنتاي لا تصدقان لولا دماثة التهذيب .

والصحف التي تنشر أخبار المجتمع والمال والأعمال في الخمسينات أو الأربعينات أو ما بعدهما أو ما قبلهما تتحدث عن أسعار زهيدة متواضعة لأشياء تعد ثمينة في أيامنا هذه بمقاييسنا ٠٠٠ وأدعوها الى قراءتها من باب الدعابة أو الطرافة كالذي نشرته مجلة الأهرام الاقتصادية في عددها الصادر ٥ يوليو سنة ١٩٨٢ من مثل فستان مشجر سعره الأصلي ٤٨ قرشا مخفضا الى ٢٧ قرشا . وتضحك البناتان .

ويكر شريط الذكريات فأتذكر توحيش رمضان حين يتغنى المسحراتي بالوحشة لشهر رمضان فيسرى الشجن منه الى الأتقياء . كان المسحراتي يقول (لا أوحش الله منك يا شهر الصيام ، لا أوحش الله

منك يا شهر القيام ، لا أوحش الله منك يا شهر الولايم ، لا أوحش الله منك يا شهر العزائم ، لا أوحش الله منك يا شهر الكرم والجود) .

ويسمح توحيش رمضان أيضا من المآذن وفي ساحات القراء ، وخير ليالى رمضان ليلة القدر التي ينعقد الاجتماع على أنها بدء نزول القرآن ومن أصدق من الله قيلا) . « انا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من ألف شهر . تنزل الملائكة والروح فيها بأذن ربهم من كل أمر ، سلام هي حتى مطلع الفجر » .

ومن أجل ليلة القدر المباركة ، يعكف كثيرون على العبادة والتهجد . في العشرة الأخيرة من رمضان ، لأن الأقوال تباينت في تحديد ما بين ٢١ أو ٢٣ أو ٢٥ أو ٢٧ أو ٢٩ فلتكن كلها أو بعضها أنها ليلة من العشر الأخيرة يستجاب فيها الدعاء ويتحقق الرجاء بل يصير الماء المالح عذبا فجأة في رأى بعض المؤمنين

انها ليلة القدر . . طوبى للموعد .

الثلاث الأخير من رمضان :

تحدثت عن النصف الأول من رمضان بكل لوازمه وتقليدياته ، أو عن الثلثين الأول والثاني منه ، والأخير يقع فيه احتفالان هامين كانت القاهرة تحتشد : ليلة النصف من رمضان وفيها كانت القاهرة تقيم حفلة نيابية تشترك فيها الزوارق والبواخر المزينة بالأنوار كما يكاد يمضى يومان حتى يحل ١٧ رمضان فتحتفل القاهرة في جميع المساجد بذكرى ليلة بدر . . . ان ذاكرة مصر لا تخطئ يوما من أيام الاسلام المشهودة حتى تلك الأيام الباكورة عليها أقصد على اسلامها وان كانت بقيمتها القديمة أقرب ما تكون الى مثل الاسلام ومعطياته . ولأمر ما وجدت فيها الأديان من الاستجابة والفهم والنفاذ ما لم تجد في غيرها لا يستثنى بلد أو جيل أو قبيل .

كان المفروض أن أحكى حياتى فى القاهرة ولكنى فى حضرة القاهرة نسيت نفسى طويلا وطافت الحكاوى والغناوى من قلبى للقاهرة تحدثت عن القاهرة فى حياتى ولم أتحدث عن حياتى فى القاهرة ولكنى فى رمضان أقابل نفسى . . أكتب أولف . . أقرأ . . أعيد تنظيم خطوطى .

وفى رمضان أقابل الصفوة من العلماء والأدباء . وفى رمضان زارنى

الأستاذ الزيات ، والأثرى حسن عبد الوهاب . وفي رمضان زارني زكريا أحمد ورامي وأمضوا عندي جلسات خصبية عن تاريخ مصر الفني . . وفي رمضان زارني كثير من صفوة البلاد العربية وإن كانوا زاروني في غير رمضان ، ولكن ميزة رمضان أنه يمد في المجلس ويطيب فيه الحديث .

ماذا دار في زيارات رمضان . . ماذا قال يرم وزكريا . . ماذا قص رامي وروى وأنشد . . ماذا قال لي السنباطي يوم طلب بنفسه زيارتي وهو العازف عن الزيارات واللقاءات .

ليالي جميلة وكريمة تقترب عندي بـرمضان .

وينتهي رمضان وما انتهت ذكرياته عندي . . هذا الشهر الخصيب الذي أراه موسمي للكتابة . . لقد ألفت في رمضان كتابا عشت أتمني كتابته على امتداد سنوات ولكن التركيز والتعميق ، كانا دائما في رمضان . . وقد اعتدت حين أفرغ من كتاب ، أن أطويه عن المطبعة وقتا . . أعود إليه ، بعده ، أقرؤه بعين القارئ المستريح لا المؤلف المرهق في الكتابة أو حتى غداة الكتابة . . وأعدل وأبدل وأحذف وأضيف . . إنه القلق المشحون الذي يحسه الكاتب المسئول أمام الله وضميئه والناس .

في رمضان كتبت أعز كتبي . . كتابا عن عبقرية الاسلام وأسمح لنفسى بذكره بل الافصاح عن اسمه لأن هذا الكتاب نقد ، بل أنه أصلا طبع للعالم الاسلامي ولم ينزل السوق المصرية في الطبعة الأولى ثم نزل في طبعة ثانية وسار .

رمضان شهر الصوم والعبادات ، لم أكتب هذا الكتاب من زاوية الطقوس أو النصوص على كرامتها عندي وأدائي والتزامي بها ولكني كتبت من رؤية حضارية يعظم بها الاسلام عندي وعند الانسان في كل مكان بل عند المنصفين من أبناء الأديان الأخرى وإن لم يعتنقوه .

كيف كان الاسلام ثورة ثقافية واعية بالخلفية الروحية للوجود . . تلك الخلفية التي غابت عن الوعي المعاصر . . ثورة ثقافية حين ربط الانسان بالكون الرحيب ولم يحصره في ركن واحد تحت اسم العلم أو المادة .

فالثقافة ليست التخصص لأنه اذا اقتصر ، انغلاق أو جمود عند نقطة واحدة ضيقة . . ولكن الثقافة هي كيف الحياة في مجموعها . .

هي انسانيته . وهنا نفهم عبارة « والله ولي التوفيق » أى يعطى الاستفادة والنماء مما تحصله الحواس فتسمع العين وترى الأذن . ان الأخذ الرشيد عطاء كامل ، كالتجمل يأخذ حقيقا ويعطى شهدا .

بكل صفاء رمضان يصفو الانسان ويصفو الى حديث نفسه ، وفي رمضان أقابل نفسى .

وأقابل فى بيتى الصفوة من أهل العلم والأدب والفن . وكم هؤلاء من لطائف وطرائف .

دعونا مرة الشاعر أحمد رامى على الافطار . . وكان على المائدة حمام فلما انطلق مدفع الافطار قال رامى : الآن لا جناح .

وبعد الافطار يأخذ رامى فى حديث الذكريات . . حديث أشهى من أى طعام يتحدث عن طفولته فى (كتاب الشيخ رزق) وأعلامنا جميعا عرفوا حياة الكتاب وفيه حفظوا الكتاب الكريم . ويتحدث رامى عن بيته وأسرته بين مسجد السلطان الحنفى وجامع الشيخ صالح أبى خديده مجاورا لبيت أسرة شوقى المشهور الى الآن ببيت الموردى . وكيف أن هذه البيئة الشعبية الحافلة بالتراثيل والأناشيد وتساييح الفجر تصعدنا الى السماء فى هدأة الكون ، مآذن - المساجد المحيطة بالبيت ، طبعته نفسه على التوقيع والترجييع والتنظيم فكان يسعى الى الغناء بأية وسيلة ويحكى لنا أنه كان يتعرف الى « يائى اللب » ليقف منهم على منانى الأفراح . وكم ذهب اليها من غير دعوة . . ومتى . . فى الحادية عشرة مساء حيث يتجلى المغنى ويحلو معه السهر .

ويستمتع أحمد الصبى ، ثم أحمد رامى الشاعر ، الى الغناء فى شطح واستغراق . وله معرفة بالصناعة واجادة اذا غنى .

كان المغنون يعرفون فيه « سميحا فيقربونه ، ومنهم فى صباه يوسف المنيلوى وعبد الحى حلمى ، وفى شبابه داود جسنى ، وأبو العلا محمد ، وإبراهيم شفيق ، وصالح عبد الحى ، ثم سيد درويش كما سمع منيرة المهديّة . كل هذا وهو طالب لا يزال بالمدرسة الخديوية ومدرسة المعلمين .

ويسترسل رامى فيقول انه وهو طالب لم يشغله تحصيل العلم عن الفن . ومن طرائفه فى هذا الباب أنه كان يقف فى مناحات الحميس ويبكى حتى العصر !! وكان يهيم وراء البائعين المتغنين فى الشوارع والحارات حتى لقد مشى يوماً وراء عربة جميل من بيته فى حى السيدة زينب حتى بولاق . (١)

(١) كتاب (أحمد رامى قصة شاعر واغنية) للدكتورة نعام أحمد فؤاد

والشعب المصرى يحب الغناء حتى أن الباعة المتجولين ينادون على سلعتهم فى تنغيم وتطوير .

وكان رامى وهو مدرس يخرج عن موضوع الدرس ويلقن تلاميذه أناشيده الشعبية بعد أن يلحنها لهم ، على غرار بعض الأغاني الشائعة . ومن فصله . ومن تلاميذه ينتشر النشيد فى المدرسة كلها . بل فى أحيائهم التى تقع بيوتهم فيها . . . يفعل هذا حتى فى حصص الديانة . وهو لا ينظم الا اذا سمع موسيقى أو غناء ، واذا نظم لا يكتب شعره ، بل يغنيه ترنيما . ولعل هذا سر ليوته لفظه وطواعيته .

وللشعراء عادات تغيب عنا نحن القراء ونحن مسحرون بالقصيدة . شوقى يزعم أنه ضعيف النظر فيسعى ويأخذ مكانه فى الصفوف الأمامية وهناك يترنم به (ويدندنه) . وفى الاستراحة يقابل (رامى) ويسمعه شعره) .

وهنا أقول ان شوقى أعجب برامى واختصه ، وكان يطيب له أن يدعوه الى بيته فى حفلاته ، وأن يرافقه فى خلواته خارجة . . . وكان رامى يروق له أن يلقي شعر شوقى فى الأندية . وتوثقت الأسباب بينهما حتى أن (شوقى) كان يسمع (رامى) شعره قبل إخراجه للناس .

وتشاء الأقدار أن تجمع بينهما فى الشعر كما جمعت بينهما فى الحياة . فحين سافر رامى سنة ١٩٢٣ الى باريس فى بعثة علمية ، كان شوقى يزور فرنسا كل صيف فيلم به رامى . . . وفى سنة ١٩٢٤ عاد رامى من فرنسا وعرف أم كلثوم ولازمها . حين لازم عبد الوهاب (شوقى) فالتقى الشاعران عن طريق الغناء فقدم شوقى (بلبل حيران) و (فى الليل لما خلى) حين قدم رامى (ان كنت أسامح وأنسى الأسية) و (أخذت صوتك من روى) . والتقى مرة أخرى عن طريق المسرح ، اذ قدم شوقى للمسرح المصرى مسرحيته (مجنون ليل) ، وقدم رامى مسرحيته (غرام الشعراء) . ومثلت المسرحيتين ، السيدة فاطمة رشدى .

وكثيرا ما ضمهما على الوداد ، نادى الموسيقى الشرقى . ويحكى لنا رامى ، قصة عمره . . . قصة أم كلثوم . . . قصة غنية وثقبة معا . . . وهى أكبر من صفحات معدودة لقد كتبتها فى كتاب يربو على خمسمائة صفحة وفى نفسى مزيد .

لقد سافرت مرة فى رحلة على امتداد شاطئ البحر الأحمر . وكان على الباخرة الشاعر أحمد رامى واتصل من جديد حديثنا عن أم كلثوم حبيبتنا كلنا على امتداد الساحة العربية كلها .

سألته مرة : ألم يحدث أن أحببت غيرها ؟ سألته كمن يطمئن على شيء كبير .. كبير .. وطال انتظاري للجواب ، على لهفتي وخوفي ... حتى هتفت به : قل لا ...
اشتبهت أن يقول لا ولكنه قال نعم ! .. وتركتني ذاهلة مبهوطة لحظات .

وفتح رامي عينيه بعد أن كان أسبلهما طويلا ثم ابتسم وقال : كنت في كل مرة أكتشف سريعا أنني أحب في الأخرى سمار أم كلثوم أو عينيها أو يديها ... شيئا منها .. جزءا .. فأدرك السر وأعود أكثر ولعا الى المنبع .. هي الكل .. الكل في الكل .. انها سومه .
ويقرر وجيبي .

ثم حاولت أن أسأله : وهل أحببتك هي هذا الحب كله ؟ ولعل الشاعر صادف مثل هذا السؤال كثيرا في طريقه فهو يقول :

أرادوني على أنى أبوح	وهل يتكلم القلب الجريح
وماذا يبتغون وفي فؤادي	جوى أفضى به الدمع الفصيح
نعم أهوى ولا أخفى غرامي	ومن شرف الهوى أنى صريح
وأما ان سئلت هل اصطفتني	سكت فما استرحت ما أريج
ومن لي أن أقول تعلقتنى	وقاب الغانيات مدى فسيح
تلاقيني فتخلص بى نجيا	والس حبها فيما يلوح
وتزدحم القلوب على هواها	فتتكرنى ولى كبد قريح

ويلمح اشفاقى فيقول لقد غنت لي وحدى خمسة وثلاثين عاما
وقفت ترسل الغناء فانت
وشجها ما رجعت من نسيبي
بلساني ونوحت في غناها
فاحتواها الشجا وراحت تغنى
وشجاني من صوتها ما شجها
يا هنائي شقيت بالهجر حتى
« يا هناء » في هجرها ورضاها
وصلتني وزال عني جفاها
يا شقائي نعمت بالقرب حتى
وحرمتنا الأيام معه طيب لقائها
وبتنا نتعزى بطيب غناها الذي
يقف في حياتنا الفنية ، قمة وحده حتى بعد الغياب .

بيرم التونسي

تحدثت عن شاعرنا أحمد رامي .. أطيايف ذكريات . وكان يزورني في رمضان من أعلام الأدب والفن الأستاذ بيرم التونسي ، والفنان العظيم زكريا أحمد .

أتحدث عن بيرم التونسي وكل زجال في مصر أفاد من بيرم حنى
من يكبرونه سنا . واذا ذكر بيرم ذكرت قصيدته الشهيرة « المجلس
البلدى » وكم كان يحلو له أن يقولها وزكريا يستحبه . وفى هذه
القصيدة يسخر من رسوم بلديات المدن وان كان يعنى بها مجلس بلدى
الاسكندرية فى صباه :

قد أوقع القلب فى الأشجان والكمه
هوى حبيب يسمى المجلس البلدى
ما شرد النوم عن جفنى القريح سسوى
طيف الخيال خيال المجلس البلدى
اذا الرغيف أتى فالنصف آكله
والنصف اتركه للمجلس البلدى
ولم أذق طعم قدر كنت طابخها
الا اذا ذاق قبل المجلس البلدى
ولا كسوت عيالى فى الشتاء ولا
فى الصيف الا كسوت المجلس البلدى
أقول حتى اذا ما فى الطريق أرى
قرشين ذا لى وذا للمجلس البلدى
كان أمى بل الله تربتها
أوصت فقالت أخوك المجلس البلدى
هل دامت الرسل بين العاشقين كما
تدور بينى وبين المجلس البلدى
أمشى فأكتسم أنفاسى مخافة أن
يعدها عامل للمجلس البلدى
وان جلست فجيبى لست أتركه
خوف اللصوص وخوف المجلس البلدى
الأرض والناس والأنعام أجمعها
الكل ليس لغير المجلس البلدى
حتى قبور الالى ماتوا اذا نبشت
فليس الا بفأس المجلس البلدى

يا بائع الفجل بالمليم واحدة
كم للعيال وكم للمجلس البلدى
أخشى الزواج وأخشى أن ينافسنى
على العروس صديقى المجلس البلدى
وربما وهب الرحمن لى ولدا
فى بطنها يدعيه المجلس البلدى

أقسمت لا أدخل الجنات ، عن ثقة
فى الحشر ان كان فيها المجلس البلدى

وقد كان لهذه القصيدة دوى امتد صداه عشرات الأعوام بعد نظمها ،
ولا تزال علامة فى أدب بيرم لا يخطئها دارس له .

ويطلب الشيخ زكريا الى بيرم المقامة السندوتشية فيترجع بيرم على
أريكة عندى يفضل الجلوس عليها والاتكاء الى مسندها ويقول وعين زكريا
تلتهم الكلام فى اعجاب لا يلبث أن يصبح استغراقا فى الضحك .
اليكم طرفا من مقامة بيرم السندوتشية .

(قال صاحبي شفيق أفندى ، وجعل يسهر كل ليلة عندى . وشفيق
هذا لا يحب الشيوخ الا نه يحترمنى ويمسح لى جوخ لأنى أشرح له معنى
الكلام ولبابه ، واكشف بالنحو خطأه وصوابه .

جاءنى شفيق ذات يوم يقول : قم فاستنشط ، ودقنك فمشط ،
وأظافرك فقمع ، وحذاءك فلمع ، وجبتك فالبس ، وعمتلك فاكبس
فسأخذك الى حفلة راقصة ، وليلة أنس هائصة لتعرف مجارى المياه ،
وترى كيف تكون الحياة . قلت ما كنا من أهل النقص ، حتى نذهب الى
حفلة رقص ، أو ترقص انت أيضا ؟ قال وأفيض فيضا . فقممت فلبست
جبتي التى لونها كمونى ، وقفطائى الذى أرضيته خضراء وخطوطه
زيتونى . وتعطرت من القسدم الى الدماغ ، وركبنا عربة بخمسة عشر
قرش صاغ . فلما وصلنا الى الحارة ، لم نجد على المنزل دليلا ولا اشارة .
ولكن بيرم ما لبث أن وجد البيت ووصف الحفلة والمائدة وصفنا
رائقا فائقا وكاركاتيريا أيضا . .

ويحكى لنا بيرم عائدا بذكرياته الى سنة ١٩١٩ حين أصدر (المسلة)
بدون رخصة . التسمية أعزائى القراء لها مدلولها لقد كان بيرم متعلقا
بمصر تعلقا شديدا ويؤلمه أن ننسبه الى غيرها بحكم الجذور البعيدة . .
كان دائما يقول لى : بعد كل هذا تظلمونى وتقولون بيرم التونسى . ومن
تعلقه بمصر ، انغماسه فى الأحياء الشعبية وتعبيره عنها .

ومن تعلقه بمصر كتابته بالعامية المصرية التي اعتبرها العربية المصرية واجادته فيها الى حد البراعة البارة حتى كان شوقي أمير الشعراء يقول (لا أخشى على الفصحى الا من يرم) وهو اعتراف له قيمته بأنه يبرز الفصحاء .

يقول عنه الأستاذ العقاد :

كانت آية الآيات فى يرم أنه كان يفهم السريرة الناطقة بالعربية من بواطنها الخفية قبل أن يحكيها بلهجاتها الكثيرة على الألسنة أو الأقلام) .

أعود الى ذكريات يرم والى مجلة المسلة .

- لقد أصدر منها ستة أعداد ثم نفى وأخذ يرأسل مجلة (الشباب) .
- كان يكتب أزجالها وأشعارها وصورها الوصفية فكانت متعة ومدرسة .
- وصاحبها محمد عبد العزيز الصدر (توفى سنة ١٩٥٨) .

مدرسة للشباب المصرى .

وأكبر راوية ليرم الشاعر حمام الذى كان يملأ المجالس بأشعار يرم وأزجاله ومقاماته وسخرياته حتى لم يبق من كبار الأدباء ورجال المجتمع الا من عشق يرم .

ويرم مصور ، وصور يرم هى فن الكاريكاتير القلمى :

هذه صورة لها نظائر ، يصف فيها يرم لبنان الحى :

لبنان لا رعاه الله ذو ورع يبيعنا الماء لم يخلطه بلبن

ومن روائع يرم تقليده للشعراء وفى مقدمتهم شوقي :

قلد الشاعر أحمد شوقي حين يرثى ، على هذه الصورة :

أحد الفرقرين بالأمس طاحا ويحه ألهم السما النواحا
سمعت نعيه البرية خالت أن ميكال بالبرية طاحا

وقلد حافظا حين يرثى - كذلك - فقال :

صدرنا نهار الروع عن قبر مصطفى كأننا يتامى ينشدون المواسيا

وقلد محمد الهوارى فقال :

زلزلة اليابان جاءت بلا أوان
فهلك العباد لكن نجى الميكادو

ويشتد ضحك زكريا حين يسمع تقليد بيرم للشاعر البدوي الشيخ
محمد عبد المطلب ونسمع وسط الضحك صوت زكريا « قول يا خويا »
ويقول بيرم :

إذا بعبت أو جعجت يوما تحمست الخلائق أجمعونا
وقلده متحدثا عن زلزال :

وها لربيع قام يستبكي متبعص الجنبات منك
وقلده شعر المنفلوطي على أنه يصف التليفون قال :

يا يراعى أسعد يميني وانظم في التليفون هذه الأشعارا
وتوخ السهل المنيع وحادر أن ترى يا يراعنا مهذارا
هذه آلة التكلم دقت : فتغنت وحركت أوتارا
ويغرق زكريا في الضحك ونحن معه ، ويغرق خيال بيرم في
الوصف مقلدا أعلام عصره .

قلده بيرم المرحوم الشيخ إبراهيم سليمان وهو أحد خطباء ثورة
١٩١٩ وشعرائها فنظم على لسانه في وصف التلغراف كما قلده الشيخ
الهاشمي يصف الأنوار الكهربائية وقلده « بقيت » . . يصف الترام .
وما وصف هؤلاء ولكنه خيال الفنان بيرم التونسي . . .

يصف بيرم الأنوار الكهربائية متقمصا شخصية الشيخ الهاشمي
صاحب كتاب (جواهر الأدب) .

بشرى فقد وصف الأستاذ ما عرفا شمس الكهارب في أفق العلا طلعا
تضي في الليل والعداد يحسبها الساعتان بمليم فواعجبا
لها كذلك زر شأنه عجب يضيئها الزر طرا كلما انفتحا

أما صورة الترام التي رسمها بيرم بأسلوب الشيخ بخيت فهمي :

ان ارتكانا على لوح من الخشب
لم يبق شخصا من الاشخاص في تعب
لله هذا ترام حين تركبه
نستغنى حقا عن الأفراس والنجب
ان الترام عجيب حين يخرج منه
شبرا فكالوت فالسيدان فالعتب
(يقصد كلوت بك) أي العتبة الخضراء

وهكذا طلع بيرم على الحياة الأدبية بالجديد النابض الجذاب حتى
الأوزان جدد فيها • لقد اخترع بيرم أوزانا في الزجل • ومن ابتكاراته
الزجل الرباعي في هذه الصورة الرائعة من صور بيرم •

في كل عام للورد أوان	الا النسوان
بقدرتك نابتين ألوان	أبيض وأحمر
وانت الى تعلم وأنا أجهل	فيه ايه أجمل
من الخدود الى لا تدبل	ولا تتغير
ودى العيون الى أشهد لك	بها واسجد لك
دى خلت الطاغى انقادلك	والمتكبر
والشفتين الى فالفهم	كنت خالفهم
للابتسام ولا رازقهم	دا انت تحير
لك قوالب للأجسام	غلب الرسام
يقلدك بحجر ورخام	يلقاك اشطر
بذمتى يا جاذبنى	يا معذبنى
ويالى ذوقك يعجبنى	لما تصور

وهكذا يصنع أو يبدع الفنان ويصور ولكنه الى جانب روائع الله في
الخلق يحار أمام المصور الأعظم الخالق البارىء ومن أحسن من الله صبغة •

حكى لى بيرم فى زيارته أن الترام فى أول ظهوره فى شوارع
الاسكندرية كان حدثا أو أعجوبة فى عين الناس الذين كانوا يتناقلون
أخباره وحوادثه أيضا •• ويلعب الخيال الشعبى دوره فى حكايات ضحايا
الترام ممن دهسهم أو كهر بهم •• أما الظرفاء فقد أخرجوا لسانهم
للعربية أصحاب الحناطير فى أغنية تقول :

الكهربائية الكهربائية عطلت ع العربية

ولكن عربية الكارو اقتصوا لزملائهم عربية الحنطور فكانوا
لا يحلو لهم السير الا على طريق الترام أى بين القضيبين ولا عليهم أن
يكون هناك ترام وراهم أو أمامهم أو كمسارى يصرخ أو تصيح زمارته
فيهم • ويحكى بيرم أنه كان جالسا على عربة كارو مع أطفال آخرين فى
صحبة أمهاتهم متجهين الى حى « الأنفوشى الشعبى » • وكانت العربة الكارو
التي يركبونها تسير على القضبان معترضة تراما ضخما مهولا وزمارة

الكمنارى التى ترفع عقيرتها أشد هولا .. ولكن صاحب العربى الكارو لايبالى كمن يتعدى . وفزعتم النساء والأطفال وصرخت الأصوات من الفزع القاتل . من الطريف قول بيرم : أن بعض النسوة كن يتوسلن الى العربجى :
 يبارك لك يابنى تقول له يهود .. قل للترماى يروح من ناحية
 ثانية .

الترام هو الذى (يهود) لا العربجى .

وبعد لآى أو جهد اذعن العربجى مضطرا وهو يرغى ويزيد ويلعن
 أسرة سائق الترام واحدا واحدا بدءا بالآباء وانتهاء الى الأجداد .

ويظل بيرم ساعات يتنقل بالذكريات من الأنفوشى الى مسجد المرسى أبى العباس وكيف يثق الناس فى بركته وكيف أن الرجال يطوفون به ملتسقين البركات . أما النساء فيملأن من الميضة القليل لأبنائهن المرضى بالحصبة والتيفود وكان الأخير فى ذلك الوقت مرضا خطيرا ولكن المرسى أبا العباس فى نظر سسييدات الاسكندرية سره باتع فماؤه يشفى جميع الأمراض . ويعلق بيرم : وماؤه أى ماء حنفياته من ماء ترعة المحمودية ، ولكنه الوجدان المصرى الدينى والأنيس ، فكل بلد له شيخ يؤنس ويريحه ويلتمس عنده البركات .. مع اعتقاد مصر الراسخ والأصيل فى الله الواحد الذى لا خير الا خيره ولا اله غيره جلّت صفاته ليس له كفوا أحد .

أحاول أن أقفل ذكريات بيرم لأنها عندى بحر ، ولكنى أريد أن أنتقل الى غيرها من الذكريات ذكرياتى وذكريات من عرفتهم من أعلام مصر والقاهرة . دعنا من حى السيادة وفيه الكتاب الذى تردد عليه بيرم طفلا .. لقد عاش بيرم فى مختلف البيئات وعرف كافة الأوساط حتى لم يترك شيئا الا وصفه أقصد صورته فى سخرية ضاحكة ولكنه الضحك المندى بالدموع .. وانى لأحفظ عن ظهر قلب حتى قبل أن يزورنى ويغدو لأسرتى صديقا ، لوحته : (فى الطريق) .

أربع عساكر جبابرة يفتحوا برلين
 ساحبين بتاعة حلاوة جايه من شربين
 شايله على كتفها عيل عنيه وارمين
 والصاج على مخها يرقص شمال ويمين
 ايه الحكاية يابيه ؟ خالفت الجوانين !
 اشمعنى مليون حرامى فى البلد سارحين

ولكن ذكرى الفنان يعدو هذا كله ويطلب الى بيرم لوحة أخرى ..
لوحة الغناء وينطلق بيرم وكان ذكرى لمس منه وترا حساسا ؟

طلعت موضة غصون وبلا بل شابط فيها حزين
شاكى وباكى وقال مش عارف يشكى ويبكى لمن
والى جابت له الداء والكافيه ، طرشه ماهش سامعاه
ياهل المغنى دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله
ردى عليه ياطيور بينادى ، وارمى له الجناحين
وانت كمان يا بابور الوادى ، قل له رايح على فين
قل له اياك يرتاح يا بابور ، ويريحنا معاه
ياهل المغنى دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله
حافظين عشرة اتناشر كلمة نقل من الجورنال
شوق وحنين وأمل وأمانى وصموديه ودلال
والى تعاد يتزاد ياخوانا وليل ونهار هواه
ياهل المغنى دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله

آه لو امتد العمر ببيرم وشهد موضة أخرى وبيله وهى موضة
الكاسيت وقد سبق أن تكلمت عنها فلا حاجة بى الى الاعداد .

دخل مرة بيرم وكانت ليلة حفلة أم كلثوم ووجدنى مستغرقة استمع
اليها فى أغنية (عودت عينى على رؤياك) وبعد أن انتهت الوصلة جئتمت
معه أحلل أدائها فى استغراق أشد .. واذا بى أرى بيرم يتميز غيظا
وهو يقول : انى ، فنانا ، أقدم روائع فلا أجده بعض هذا الاستغراق أو لمحة
منه فأنقل الحديث فى محبة الى قصته مع أم كلثوم وهنا يشتد عتابه على
رامى لا عليها . كان يقول مهما عملت لا أستطيع مغاضبتها . ما حيلتى
وعندها شاعر يقدم لها القضاة مجانا فى ولاء وفناء ؟

وأسأله هل فكرت أن تعطى مثلا رائعة (شمس الأصيل) لآى صوت
آخر من الرجال أو النساء فيقول : مستحيل .. ولو عاد بى العمر
لا أعطي غيرها مختارا . ان أدائها يكتب للشاعر الخلود .. انها
« أم كلثوم » .

ذكرى أحمد :

دعونى أروى لكم ذكرياتى عن الفنان العظيم ذكرى أحمد وكان

لنا صديقا . كان زكريا يحدثنا كأننا أطفاله وهو الأب الحانى . جمعته مليئة بالحكايات ، وكنا نستمتع له فى شغف واستمراء . وكان يحسن هذا منا زوجى وأنا . فيعود بنا الى السنبلالوين حيث دعاه سنة ١٩٢٠ التاجر (على أبو العينين) الى احياء ليالى رمضان بتلاوة آى الذكر الحكيم . وكان الفنان زكريا شبيخا مقررنا . وهو سر نفاذه الى أعماق اللفظ والمعنى وارتفاع ألحانه وتحليقها تحليقا . واشترط تاجر السنبلالوين على الشيخ زكريا أن . يغنى أيضا بعد تلاوة القرآن .

وافق الشيخ زكريا على الشرط وبدأت سهرات رمضان . وما هى الا بضعة أيام حتى أسرو اليه أن فى جمعته له مفاجأة عظيمة . ولم يطل تساؤله فقد أخبروه أنهم اكتشفوا فى البلد المجاورة لهم أجمل صوت سمعوه . ولم يطل انتظاره فقد حضرت الفتاة أو أحضرها على الأصح . ودخلت الصغيرة ذات العقول تنعثر فى خطواتها من تهيب وحياء يلغى الخوف ومعها شيخ صغير يلبس الطقم كاملا . الجبة والقفطان والعمامة . ولعل هذا (التكامل) فى الزى الوقور أكسب الفتى ثقة فى نفسه جعلته يتقدم أخته فى اعتداد كمن يرسم لها خطواتها .

ولكن عين زكريا الفنان وقعت على الفتاة دون أخيها فأجلسها الى جواره ، وأخذ ينفذ عنها خوفها بالحديث الحانى . فإذا بالريفية المتلعثمة الخطوات طليقة اللسان والعقل والصوت ، وإذا بحديثها منور من الذكاء ولطافة الروح . وما لبثت أن غنت فتم لها الاستيلاء على الشيخ زكريا الذى يقول :

(ومنذ ليلتها وأنا أصم لا أسمع الا صوتها ، أبكم لا أتحدث الا باسمها . . . لقد أصبحت مفتونا بها وأقول مفتونا ، لأننى أحببتها حب الفنان للحب الخالد . تمنى العثور عليه دهرًا طويلا .

لست بحاجة الى أن أقول ان الفتاة الخفيفة اللطيفة الذكية الموهوبة ، هى الصغيرة أم كلثوم فى مطلع حياتها .

دعا زكريا الصغيرة أم كلثوم طيلة شهر رمضان فلبت جريا وراء القصائد والأغاني التى يغنيها وتطرب لها ، والتى كثيرا ما كان يحاول تحفيظها لها كما دعتة الى زيارتها بقريتها « طماى الزهايره » ويحكى لنا الشيخ زكريا ، ويرم ويسمع ، معنا طرائف أول زيارة لأم كلثوم فى قريتها ويتصل الحديث ويسهر معنا الليل طروبا مثلنا .

مضينا مع الفنان زكريا أحمد الى قرية طماى الزهايره حيث دعتة الصغيرة أم كلثوم الى زيارتها . يقول زكريا : لببت الدعوة وتناولت

الطعام على طبلية جلسنا حولها على كليم لا أزال أذكر لونه أحمر على أسود ونهشنا أوزة كاملة ثم لعبنا عشرة كوتشينة • ومنذ يومئذ أخذت أم كلثوم وشقيقها يحضرون لسماعي كل يوم في سراى أبى العينين • ومما أذكره أن المرحوم الشيخ خالد لم يبد إعجابه بصوتى • ولكن الذى أعجبه منى أننى (الفقى) الوحيد فى مصر اللى عنده عشرة أزواج من الأحذية •

ومن الطريف أن الشيخ زكريا ظل يردد بعد أن اشتراها معا ثم تقاضيا :

(أم كلثوم لها عندى وزه ولى عندها ٤٠٠٠٠ جنيه) والحقيقة أن حقه كان عند الإذاعة ، لا عندها وتسأل عن عمر أم كلثوم فى ذلك العهد فيقول :

كانت أم كلثوم سنة ١٩٢٠ صبية لم تتجاوز بعد طور الحداثة حتى ليترضاها زكريا بمص القصب معها ، ويلاعبها الورق على الطبلية فقد كانت لا يستهويها شىء كالموسيقى والمرح •

يقول زكريا أنه عاد الى القاهرة بعد أن انتهت ليالى رمضان مخلفا أم كلثوم بطماى الزهايريه ولكنها بلقائه الفطرة كانت حريصة على هذه الفرصة الفنية التى أتاحتها الله له فقد أخذت تراسله • ويصف لنا زكريا خطاباتها الأولى فى ذلك الحين بأنها كانت تحمل عبارات ساذجة مكتوبة بحبر أخضر يذكرنى بالخضرة والصوت الحسن ، وكانت خطاباتها تدفعنى دائما الى القيام بالدعاية لها هنا من حيث لا أدري ولا تدري •

أما أول رسالة كتبها لها فلم تكن فى مثل عقوبة رسائلها • كانت رسالة لها مضمون محدد الغرض فقد طلب اليه صديق تاجسر احياء فرح له فكتب لها فلبت دعوته • ومن الطريف ان الأجر المتفق عليه كان ثمانية جنيهات وهو الرقم الذى ارتفع اليه أجرها سنة ١٩١٩ عند ما ارتفعت أسعار القطن رفعها الشيخ زكريا بعد الحفلة الى عشرة • • وقد دعا الى تلك السهرة المرحومين الشيخ محمود والشيخ أحمد ندا فامنا على ذوقه ورأيه •

ويحكى زكريا ولم يكن الصلح قد تم بينهما بعد - أنه عشق صوت الصغيرة أم كلثوم فكان يهديها الحانه واندفع بعمل حماسته يدعو لها ويشيد بها ويقم لها الحفلات الغنائية فى الحسين مرياه وجعل الدخول بتذاكر • وأغراه نجاحها باعادة الكرة فى نادى الشبيبة •

ويقول زكريا انه أم كلثوم في ذلك الوقت تقدم اليها الخطاب ومن بينهم العمدة الثرى والتاجر الملى وكثيرون . غير أنها لم يفلح معها الشراء والاعراء بكل ألوانه . . لقد اختارت . . اختارت الفن .

ويقول ان الاشتغال بالفن كان يأتي لأصحابه صدفه حتى الموهوبين ، الصدفه وحدها هى التى كشفت عن مواهبهم . وكان من الجائز أن تظل مخبوءة لا يدري بها أحد ، ولا الأيام .

ومن طرائف الصدف أن أسندت الى الشيخ زكريا الطبيب السمع دورا تمثيليا بعيدا كل البعد عن الطيبة (فى بدء عهد مصر بالسينما) . وكان يتندر برواية هذه القصة فى مجالسه كلها . يقول الشيخ زكريا (اتفقت مع مدير انتاج - فيلم انشودة الفؤاد على أربعمئة جنيه مقابل الألحان وبعد أن قرعت منها ، وذهبت أطلب بالمبلغ ، وكان هذا أقبل بدء التصوير ، فوجئت بالمنتج يسلم لى أربعمئة قرش صاغ فثرت وهجمت عليه أريد ان (أطبق فى زماره رقبتيه) وكدت أفنك به . . وتصادف ان كان مخرج الفيلم موجودا ولاحظ علامات البشر فى وجهى فاصر على أن أقوم أنا بدور البطل الثانى فى الفيلم) .

ومن الطريف أيضا أن فيلم أنشودة الفؤاد هذا قصة وضع حوارها وأغانيتها الأستاذ عباس محمود العقاد .

ومن طرائف زكريا والانسان التى رواها لنا ، فى احدى زياراته الرمضانية ، أنه عاد يوما الى بيته فاذا ببائعة فجعل ترجوه أن يشتري منها . . فاشتري زكريا المشنة كاملة وأنقدها جنيهين .

ولم تصدق المرأة المسكينه عينيها الا بعد أن حمل المشنة وسار بها فأخذت تدعو له . . ويسمع دعاءها فتترقرق عيناه . ولكنه ما ان دخل البيت حتى انزعجت زوجته ماذا تصنع بمشنة فجعل فقال لها زكريا : تصرفى وزعيه على جيرائك ولكنى لا أستطيع أن أترك المسكينه تمضى اليوم كله تبيع الفجل واحدة واحدة وتشقى . انها عاطفة الفنان .

ومن طرائفه ما يرويه من أن عبده الحامولى ومحمد عثمان ، فى وقت ظهورهما ، كان اذا ظهر فى الأفق صوت جديد يقوم كل منهما بامتحانه امتحانا عسيرا فيطلب اليه أحدهما أن يغنى موالا من عدة لغات ثم يؤديه على (الواحدة) ثم توشيحيا من ضرب معين ، فاذا اجتاز هذا الامتحان لبس (حزام) الطرب وأصبح مطربا .

ويقول انه لمعت فى الربع الاول من القرن العشرين أسماء : كامل

الخلعي ومحمود رحى وكان ٠٠ أسنآذ فن التوشيح وداود حسنى صاحب
(لحن المراكبية) و (ليلة فى العمر) وغيرهما ٠

والدكتور صبرى النجرى ومن العوادين (على أحمد صادق) وكان
مشهورا بكثرة محفوظه من البشارف والموشحات والسماعيات التى
أخذها سماعا من كامل الخلعى ودرويش الحريرى دون أن ٠٠ يستعين
أثناء العزف بالنوتة ٠

ومن عازفى العود محمد عبد الله بك وشيد ٠

ومن هواة العازفين على الكمان مصطفى ممتاز ٠

ومن عازفى القانون الهواة محمود رأفت ٠

ومن المطربين والملحنين سيد مرسى ومحمود صبيح الذى كانت
نوادره أشهر من أعماله الفنية ٠

ومن المطربين عبد الحى حلمى الذى كان زكريا يستمتع الى
اسطواناته حتى يضبطه أبوه متلبسا بالطرب فى نظره ، فيلهب ظهره
بالسياط ليصرفه الى حفظ القرآن ٠ ان القرآن الكريم لا يمثل فقط بلاغة
اللغة العربية ولكنه يحوى موسيقاها أيضا وتطريبها وكل ما فى جرسها
من رنين ٠ هذا اذا قرىء قراءة ٠ فأما اذا رتل ترتيلا فهو يضم الى
موسيقى الأسلوب الكثير من الأنغام الشرقية ٠

وقد كان زكريا فى سنته الأخيرة يريد أن يضع له ترتيلا جديدا ليضم
الى مجموعة أنغامه باقى الأنغام الشقيقة ٠

نعم حفظ الشيخ زكريا القرآن ٠٠ ولكنه مضى فى عشقه للفن
والنغم الجميل ، ولعل حفظه للقرآن هو الذى عمق فى نفسه حب التنغم ٠
نسى زكريا العلة وقدم بداية ألحانه سنة ١٩٢٤ فإذا بالشعب يستقبلها
استقبالا حفيا ٠ بل ان زكريا وضع ما بين سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٣٠
بضع مئات من الألحان ٠٠ المسرحية وعاش جمهور المسرح سنوات ٢٦
و ٢٧ فى فيض هذه الألحان وتسيد زكريا فن الطقطوقة خاصة وهو
اللون المصرى الصميم بين الأدوار التركية والموشحات الأندلسية
والأوبرات الأوربية ٠

كم كانت خصبة ممتعة جلسات الفنان العظيم زكريا أحمد ٠٠ لا تزال
الذكريات تنهل ٠

يقول الشيخ زكريا فيما رواه لنا ، كان فنانو الشام يسعون الى
القاهرة يأخذون عنها أغانيها وألحانها ويعيشون عليها بعد عودتهم الى

بلادهم ، حتى اذا بليت من الاستعمال ، سبوا من جديده الى . .
القاهرة .

ويؤيد هذا ما قرأته في مجلة (المسلمون) العدد ٣٥ الصادر
في ٤ رمضان سنة ١٤٠٢ هـ ، ٨٢/٦/٢٥ من ذكريات الشيخ علي الطنطاوي
الكاتب السوري الكبير .

يقول حين دعى في شجابه الى زيارة مصر (انكم لا تدرون ماذا
أثارت هذه الدعوة في نفسى من مشاعر وفى ذهنى من خواطر) .

كالت مصر فى خيالنا يومئذ دنيا مسحورة ، فيها العجائب ، وكل
مرغوب فيه يأتينا منها ، المجلات والصحف والحركات الفكرية والوطنية .
فيها الرجسالى الذى نقرأ لهم والشعراء الذين نحفظ شعرهم منها ،
وكان تخيل ذهابى اليها ، أكبر من أن يمر وصفه من شق القلم والتعبير
عنه مهما كان بليفا لا يبلغ حقيقته .

وكنى أسمع أن الأحرار من أرباب الأقلام ، ومن عشاق الحرية
يؤمنون مصر : أستاذ محمد كرد على ومن قبله شيخ مشايخنا السيد
رشيد رضا ، ومن بعده خالى وأستاذى محب الدين الخطيب ، يأتون من
كل مكان من (المغرب من الجزائر من تونس من ليبيا) .

حتى اذا وصل اليها . . . (حتى اذا قيل : هذه مصر ورأيت محطة
باب الحديد ، رأيت شيئاً عظيماً كان فوق ما كنت أتخيل) .

الصالونات الأدبية

الصالونات الأدبية

كانت القاهرة في طفولتي عاصمة مصر ثم عاصمة الثقافة والفن والأدب - كانت صحفها تضم كل صحيفة صفحة يومية للأدب وكان بالقاهرة سبع - مجلات للثقافة منها « الرسالة » للأستاذ الزيات و « الثقافة » للدكتور أحمد أمين و « المجلة الجديدة » لسلامة موسى ، و « الجديد » للمرصفي ، و « العصور » لاسماعيل مظهر و « الفصول » لزكي عبد القادر و « المعرفة » لعبد العزيز الاسلامبولي و « البيان » للمشيخ البرقوقي و « عكاظ » .

وكان في القاهرة جمعيات أدبية ، وكان فيها صالونات أدبية وفكرية منها صالون تيمور ولكن أشهرها صالون عبد الرازق الذي أنشأه عميد عائلة عبد الرازق الشيخ مصطفى عبد الرازق ، والذي كان أستاذا بالجامعتين جامعة القاهرة والجامع الأزهر بل كان شيخا للأزهر واماما أكبر للمسلمين .

كان الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذا في الجامعة وأستاذا رائدا في صالونه الأدبي ، وأستاذا وهو شيخ الأزهر وأستاذا وهو وزير . . فقد كان ، وزيرا ، يشرف على الرسائل الجامعية التي بدأها قبل توليه الوزارة .

انه ابن التقاليد ، وبيته في المنيا في النوبة من بيوتاتها شرفا ومحتدا .

وفي صالون آل عبد الرازق تألف أول فرع عربى لنادى القلم
الدولى ، بل كانت مؤتمرات النادى الدولى تعقد فى بيت عبد الرازق .
وكان الشيخ مصطفى عبد الرازق دوحه وارفة الظلال تقيها
الحران - واللاغب وشادى الأدب وشاعز القوافى . بل كان صالونه
يكرم النابغين منهم ، وأحد هؤلاء الذين كرمهم صالون عبد الرازق ،
الشاعر الشعبى محمود أبو الوفا بل توج تكريمه له بإرساله فى رحلة
الى باريس .

وكان صالون عبد الرازق مهوى الأساتذة والأعلام من رجال الفكر
- والفلسفة يتناقشون ويتحاورون ويخططون لمستقبل القاهرة الفكرى
والثقافى .

كان من رواد هذا الصالون أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد ،
والدكتور طه حسين ، والدكتور محمد حسنين هيكل ، والدكتور
عبد الرحمن بدوى - وقاسم أمين .

وفي هذا الصالون ولدت مجلة « السفور » وولدت الفكرة الى
تحرير المرأة ووضع لطفى السيد كتاب (الأخلاق عند أرسطو) ، ووضع
كتاب (ثورة الأدب) . للدكتور هيكل و (خطرات نفس) للدكتور
منصور فهمى وكتاب (فى الأدب الجاهلى) للدكتور طه حسين وكلها
هزت القاهرة وفجرت مناقشات عنيف وتهدا ولكنها فى الحالين خصبة
ممتعة باقية .

وفي صالون عبد الرازق ولدت فكرة الاعتزاز بالشرق فنشأت
« الرابطة الشرقية » أى التى تضم أبناء آسيا وأفريقية .

طويل طويل يروق ويشوق موضوع صالونات القاهرة .



« صالون مى » :

من الصالونات الثقافية الأدبية فى القاهرة ، « صالون مى » .

ولم يكن صالون مى ، الصالون النسائى الوحيد فى مصر فقد كان
هناك صالون الأميرة نازلى فاضل ٠٠٠ ولكن الأخير كان صالونا
أرستقراطيا للخاصة من أهل المال والفكر وكانت السياسة وأحداث
الإصلاح الاجتماعى تغلب عليه ٠٠٠ فقد كان من رواده الشيخ محمد

عبدہ وقاسم أمين ، وسعد زغلول ومحمد المويلحي وحسن عبد الرازق .
أما صالون « مي » فكان للأدب والثقافة والفكر ما يدور فيه ، سجالا
بين رواده من الأدباء والشعراء ٠٠٠ وكانت ، مي ، أدبية تعشق الفن
شعرا ونثرا وغناء وموسيقى .

وكانت سافره في عصر ، طابعه ، الحجاب ٠٠٠ حتى لقد كانت
الأديبتان اللتان ظهرتتا قبل ، مي ، تكتبان من وراء حجاب وأعنى بهما ،
عائشة التيمورية ، وباحثة البادية ، ملك حفني ناصف .

وكان صالون مي يعقد يوم الثلاثاء من كل أسبوع ٠٠٠ وقد دخل
هذا اليوم تاريخ الأدب العربي الحديث فقد كان يوما مرموقا مشوقا
عند رواد صالونها ، بل سجله في ، الشعر ، الشاعر المصري : اسماعيل
صبري في بيتيه .

روحي على بعض الحى حائسة كظامي الطير ، تواقا الى الماء
ان لم أمتع بمي ناظري ، غدا أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

وكان الشاعر اسماعيل صبري لا يتخلف في هذا اليوم عن
الصالون وصاحبه الا لعله مائعة حتى ليقول :

وأستغفر الله من لحظة من العمر لم تلقني فيك ، صبا

و « مي » الأدبية ، ريعانة هذا الصالون ، عاشت حياتها في القرن
التاسع عشر الذي ولدت على مشارفه في فلسطين سنة ١٨٩٠ ثم انتقلت
مع والديها الى لبنان ثم جاءت مصر معها قبيل الحرب العالمية الأولى
فكانت مصر موطنها الثاني وميلادها الثاني في الوقت نفسه أو ميلادها
الحقيقي ٠٠٠ بما أتاحته لها من أسباب الازدهار الأدبي وما قابلته ،
على أرضها من الصفوة الأعلام بما غذى طموحها ، وأمد ، له ، فطرح
ونجح وتآلق .

كان اسمها الأصلي « ماري زيادة » فاقتصرت كما يقول استاذنا
الزيات من اسمها الأعجمي على طرفيه ليكون منهما اسمها العربي
« مي » (١) .

وكان صالونها في شارع عدلي ثم انتقلت الى عمارة الاهرام ،
القديمة .

وكان يتردد على صالونها الشعراء والأدباء بل القضاة فقد كان شيخهم عبد العزيز فهمي باشا من رواد الصالون وان لم يشارك فيه .

كان يلتقى فى هذا الصالون ، المحافظون والمجددون . . . اللغويون مثل شيخ العروبة أحمد زكى - والصحفيون ، والنظراء والغرماء . . . وعلى ما كان بينهم الا أنهم فى صالونها يتركون خلافاتهم عند الباب . وتهلأ المعارك ويرق العنف ، وتشف الخصومات ، وكأنها آضت الى قرار .

وقد كتبت مى ، وكتب الكاتبون عن مى . . . فهى « هند » فى قصة « سارة » للأستاذ العقاد ، وهى المقصودة بكتاب الرافعى : (أوراق الورد) ، (رسائل الأحرار) ، (السحاب الأحمر) .

وكان لمى وصالون مى فى أدب العصر آثار وسمات : يقول الأستاذ الزيات (ألهمت صبرى وأوهمت الرافعى ، وألهبت جبران ، ثم أخرجت من سواد المداد صورا مختلفة الألوان متنوعة الأفنان ، أضافت الى ذخائر الفكر الانسانى ، ثورة) .

وعاش صالون « مى » نحو ثلاثين عاما ثم انفض السامر ، وتفرق السمار . . .

ولم يبق الا القاهرة :

القاهرة الجبيلة والعبقرية معا . . . وقلما يجتمع الجمال والعبقرية .

أما أن القاهرة جميلة فهذا لا يمتري فيه أحد . . . أما أنها عبقرية فدليل هذا ، وبعد عطائها فى العلم والأدب والفن ، أنها لا تعترف الا بالمستويات الرفيعة فى هذا كله . . .

يقول الدكتور زكى مبارك :

(فى كل بلد من بلاد الشرق يستطيع الرجل الوسط أن يعيش لأن الدنيا فى بلاد الشرق لا تزال تتسع للأوساط من الرجال . . . أما مصر فليس فيها للرجل الوسط مكان . . .

- العالم الوسط لا يستطيع العيش
- والأديب الوسط لا يجد الرزق
- والمغنى الوسط يضيع

- والطبيب الوسط لا يجد ثمن الدواء حين يمرض
- والصحفي الوسط لا يملك الوصول الى حيز صغير
- والممثل الوسط قد لا يجد الفرصة لشهود رواية صغيرة فضلا
- عن القدرة على الاشتراك فى التمثيل
- القاهرة تقول فى كل وقت : كن قاهريا
- ليست القاهرة هى التى فرضت الخمول على مئات من الشعراء
- لأنهم لم يكونوا فى عبقرية شوقى وحافظ وصبرى ومطران ؟
- ليست القاهرة هى التى فرضت الخمول على مئات من الكتاب
- لأنهم لم يكونوا فى عظمة محمد عبده وعلى يوسف وعبد العزيز جاويش
- ومصطفى المنفلوطى ومحمد المويلحى
- القاهرة لا تتسع أبدا الغير الأفذاذ الذين يغلبون الزمان)
- والحقيقة أن القاهرة الكريمة لا ترد أحدا فهى تتسع أيضا لغير
- الأفذاذ ولكن على أن يعيشوا فى الظل ... وليس ذنبها .



وفى القاهرة عرفت **الجامع الأدبية** .. وفى القاهرة ارتدت

المعارض الفنية ، وتزوج فى نفس الأدب والفنون ... غدت فى حياتى ،

صحبة ... واصطبغت كتاباتى ، بالتعدد من تعدد اهتماماتى ... وهى

نعمة أحمد الله عليها ... ومن الرزق ما يفوق المال بلا حدود ، كالموهبة ..

انها حظ عظيم وثراء عريض .

• ومن المواهب بهجة الرؤية .. وفن التدوق

• وفى القاهرة التقيت بقمم رفيعة الذرى ...

رأيت العقاد ولطفى السيد وأم كلثوم وطه حسين وأحمد حسن

الزيات ومحمود تيمور وعبد الوهاب عزام ورامى ويرم التونسي وذكريا

أحمد والسنباطى ...

• رأيت محمد حسين هيكل ورأيت حسين فوزى

• رأيت من رجال السياسة والدبلوماسية محمود فوزى

بلا ألقاب سجلت هذه الأسماء لأنها أكبر من الألقاب .. كل

الألقاب ... أكبر كثيرا ...

زرتهم وزاروني في بيتي وأنا لم أتجاوز بعد ، في ذلك الوقت ، مرحلة الشباب وحللت من نفوسهم مكانة كنت أنا نفسي أغبط نفسي عليها ٠٠ كان الزيات يدعوني : ابنته ٠٠ وكان يطلب الى ان أناديه : بابا ٠٠٠ كان يقول : انه لم يرزق في حياته بنتا ولكنه وجدها كما يتمنى أن تكون ٠٠٠ وكم كان قوله هذا يغنيني ويشجيني ٠٠٠ كان ، أبا ، يقلق اذا مرضت ، ويقلق أكثر اذا ولدت ، حتى اذا زال عني رهقي ، كان أول الداخلين الى حجرتي ٠٠٠ كان يفرج اذا كتبت ، ويسعد اذا تفوقت ، ويفخر اذا تقدمت الصفوف .

ومن الطريف أن الأستاذ الزيات حين كان يصدر مجلة الرسالة حال سكرتيه بيني وبينه على الرغم من وجود موعد سابق ٠٠٠ والقصة تبدأ حين كنت طالبة بالسنة الأولى بكلية الآداب جامعة القاهرة . كنت أكتب أبحاثا نقدية في الأدب وأرسلها الى مجلة الرسالة التي يرأسها أحد كتابي الأكرين الذين كنت أقرأ لهم منذ كنت في العاشرة من عمري .

وكنت على طرادة السن ، فرحة سعيدة بانتسابي الى كلية الآداب أيام كانت كلية الآداب باعلامها الموقين ومواقفهم المرموقة الشامخة في الحياة المصرية لا الأدبية فحسب ٠٠٠ وكنت أترجم اعتزازي بها في امضائي الذي أقرنه دائما باسمها .

وكانت مقالتي وأبحاثي في هذه السن الغضة تنشر في مجلة الرسالة بعناية ظاهرة ٠٠٠ وعرفت فيما بعد أن الأستاذ الزيات ومعاونيه في المجلة كانوا يحسبونني أستاذة في كلية الآداب لا طالبة قياسا على هذه الأبحاث ٠٠٠ وشجعني هذا على أن أطلب لقضاء الأستاذ الزيات وما كاد صوتي يصله عبر أسلاك التليفون أو (المسرة) كما يريد المجمع أو الهاتف كما يقول اخواننا في سوريا حتى جاءني صوته مرحبا متهللا وبسرعة حدد لي موعدا .

وذهبت في الموعد بعد أن احتشدت طالبة السنة الأولى ، له فاذا بالسكرتير وقد رآني فتاة صغيرة ، يتطوع بالحيلولة بيني وبين لقائه ، متعللا بتعللات سكرتيري المكاتب الكبيرة ٠٠٠ أتراه حسب اني ألتحل شخصية الكاتبة الجديدة وليست هي التي تقف أمامه ؟ أرجح هذا ٠٠ أو هو بالطبع .

ومضى على هذه الواقعة أربع سنين وتخرجت من كلية الآداب وملأت الصحف والمجلات والحياة الأدبية كتابة ونشرا ٠٠ ومن هذا المقال الذي نشرته سنة ١٩٥٦ بعد تأميم القناة بعنوان (من أجل هذا يحاربوننا).

فاذا بالأستاذ الزيات يرد فى الصحيفة نفسها - الشعب - مسترسلا فى المعنى مستهلا كل فقرة من فقراته :

(وكما قلت فى مقالك الأدبى الجميل يا سيدة نعمات ٠٠٠) .

ولم ألث أن طرقت باب بيتى عصر ذلك اليوم طارق ٠٠ وأفتح الباب فاذا بى وجهها لوجه أمام سكرتيره الذى صدنى عنه منذ بضعة سنوات ، يطلب تحديد موعد ليزورنى من ؟

الأستاذ الزيات ا ا

وابتسم لى القدر ٠٠٠

واتصلت الأسباب .

وكان الأستاذ العقاد يلقي الناس يوم الجمعة من كل أسبوع وبينهم صفوة من الأدباء والمفكرين ونخبة من مريديه وتلاميذه وكان يلقانى وحدى كل سبت من الخامسة الى التاسعة مساء ٠٠٠ ويلقى مواعيده فى هذا اليوم من أجلى يحدثنى حديث الأدب والفن والسياسة .

كنت فى ذلك الوقت حديثة التخرج أحضر رسالة الماجستير عن المازنى رفيق عمره وصديقه على امتداد أربعين عاما لم يكدر صفاءهما كدر ، أو يشب علاقتهما طائف ينال .

وكان أستاذ الجيل لطفى السيد يطلب من ممرضته أن تدعه معنا زوجى وأنا وترجى طلباتها فيما يتعلق بصحته حتى الدواء والعشاء كان يرجئهما على الرغم من الحاحنا عليه بتعاطيه .

ومن الطريف أنه أهدى الى يومنا كتابه (صفحات مطوية) وكتب فى الاهداء « الى صديقتى » ٠٠٠ ثم استدرك فى خفة روح أو كمن يستدرك وقد نظر الى زوجى ، وأضاف كلمة (الشابة) أى الى صديقتى الشابة ٠٠٠

كم سعدت وكم سمعت وكم تعلمت وكم رأيت وكم وعيت وكم أثريت الثراء الذى يرتفع كثيرا على الأرصدة والمكاسب والأرباح مما يشغل عباد المال .

ويسألوننى فى برامج الاذاعة وفى لقاءات الصحافة فيما يسألونه عن مولدى فأقول المنيا أم التوحيد وأم تل العمارة حيث أرسل العظيم اخناتون سبحاته ٠٠ المنيا التى كرمت المرأة الى الحد الذى اتخذت معه ، « نفرتيتى » شعارا لها ٠٠٠ المنيا المعطاء على مسار التاريخ .

ولكن اذا كانت المنيا التي اعتد بها ، وأعتز بأمجادها ، مسقط
الرأس ، فان القاهرة ، بعد سنوات ، مرفع الرأس .

في المنيا ميلادى الأول وفي القاهرة ميلادى الثانى .

في المنيا نشأت وفي القاهرة شسبيت وتعلمت وكتبت وتزوجت
وأنجبت وحققت ذاتى بألوان من الأمومة ليس آخرها بنوة الأبناء .

شريط طويل حافل حياى فى القاهرة ، والقاهرة فى حياى . وكم
يطيب لى الحديث المفصل عمن ذكرت من الصفوة الأعلام لولا أنى كتبت
عن « الأدباء » منهم كتابة مستفيضة فى كتابى (قمم أدبية) وكتبت عن
« الشعراء » فى كتابى (خصائص الشعر الحديث) وكتبت عن أعلام
الفن الموسيقى ، فى كتابى (أم كلثوم وعصر من الفن) وكتبت عن
التشكيليين فى كتابى (فكر - أدب - فن - سياسة) الذى أترقب مولده
ولهذا اكتفيت بلمحات منهم اقتضاها السياق فى قصتى مع القاهرة مكتفية
بما جاء فى كتبى الأخرى من تحليل متوسع بل أفردت لبعض هذه الأسماء
النوايح ، كتابا مستقلا لكل منهم مثل : العقاد - المازنى - رامى -
أم كلثوم .

قالوا عن القاهرة

قالوا عن القاهرة

قلت وما ارتوى الشوق .. أتبرأني وحدي أسيرة القاهرة ؟ لقد
أسرت الغرباء أنفسهم فقالوا . والذين قالوا عن القاهرة هذه المرة ،
هم الرحالة .

زار القاهرة في القرن الحادى عشر ناصرى خسرو فقال :

(وفى المدينة بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار
وفى قصر السلطان بساتين لانظير لها ، وقد نصبت السواقي لديها .
وغرست الأشجار فوق الأسطح فصارت متنزهات) .
أين هى البساتين اليوم .. لقد غدت بفضل عبقريتنا الهندسية
أو الاقتصادية شوارع وعمارات فى الهرم والدقى والروضة .

ويقول ناصرى خسرو :

(وكانت البيوت من النظافة والبهاء بحيث تقول انها بنيت من
الجواهر الثمينة لا من الجص والأجر والحجارة .. وهى بعيدة عن
بعضها ، فلا تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر ، ويستطيع كل مالك
أن يعمل ما ينبغى لبيته فى كل وقت ، من هدم أو إصلاح ، دون أن
يضايق جاره) .

ماذا جرى لنا هل هو الزحام ؟ أم أنسا لم نعد نحرص على جمال
مدينتنا الجميلة .. العريقة ؟

ولم يكن ناصري خسرو وحده ، في الاعجاب بالقاهرة وبيوتها
خاصة فقد التقى معه في التسبيح بها بعد قرن من الزمان
عبد اللطيف البغدادي .

يقول البغدادي :

(قلما تجد منزلا الا وتجد فيه بأذاهيج ٠٠ وبأذاهيجاتهم كبار
واسطة للريح عليها تسلط ويحكمونها غاية الاحكام حتى أنه يقوم على
عمارة الواحد منها مائة دينار الى خمسمائة دينار وان كانت
بأذاهيجات المنازل الصغار يقوم على الواحد منها دينار . وأسواقهم
وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شاهقة . ويبنون بالحجر النحيت والطوب
الأحمر وهو الأجر وشكل طوبهم على نصف طوب العراق .

وأما حماماتهم فلم أشاهد في البلاد اتقن منها وضعا ولا أتم حكمة
ولا أحسن منظرا ومخبرا ٠٠ أما أولا فان أحواضها يسع الواحد منها
ما بين زاويتين الى أربع زوايا وأكثر من ذلك يصب فيه ميزابان ثجاجان
حار وبارد وقبل ذلك يصبان في حوض صغير جدا مرتفع فاذا اختلطا
فيه جرى منه الى الحوض الكبير وهذا الحوض نجو ربعة فوق الأرض
وسائره في عمقها ينزل اليه المستحم فيستنقع فيه . وداخل الحمام
مقاصير بابواب ، وفي المسلح أيضا مقاصير للأرباب التخصص حتى
لا يختلطوا بالعوام ولا يظهروا على عوراتهم وهذا المسلح بمقاصيره حسن
القسمة مليح البنية وفي وسطه بركة مرخمة وعليها أعمدة وقبة .
وجميع ذلك فروق السقوف وفوق الجدران مبيضها مرخم الأرض
بأصناف ههجزه باختلاف ألوانه ، وترخيم الداخل أبدا أحسن من
ترخيم الخارج وهو مع ذلك كثير الضياء مرتفع الأزاج ، جاماته مختلفة
الألوان صافية الأصباغ بحيث اذا دخله الانسان لم يؤثر الخروج منه
لأنه اذا بالغ بعض الرؤساء أن تتخذ دارا لجلوسه وتناهى في ذلك
لم تكن أحسن منه) .

عبد اللطيف البغدادي في مصر

أما ابن سعيد المغربي فيبدو أن ابن البلد القاهري اراد معايشته
بمزاح زاد جبتين : ولندع ٠٠ القصة لابن سعيد يرويها :

(ولما استقررت بالقاهرة تشوقت الى معاينة الفسطاط فسار معي
اليها أحد أصحاب القرية ٠٠ فرأيت عند باب زويله من النحير المدة
لركوب من يسير الى الفسطاط جملة عظيمة لا عهد لي بمثلها . في بلد .

فرغب منها حمارا وأنشأ الى أن أركب حمارا آخر ، فأثقت من ذلك جريا على عادة من خلفته في بلاد المغرب . فأخبرني انه غير معيب على أعيان مصر ، وعايينت الفقهاء وأصحاب البزة والشارية الظاهرة يركبونها فركبت . . . وعندما استويت راكبا أشار المكاري الى الحمار فطاربه وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عيني ودنس ثيابي وعايينت ماكرهته . . . ولقلة معرفتي بركوب الحمار ، وشدة عدوه على قانون لم أعهده ، وقلة رفق المكاري وقعت في تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج فقلت :

لقيت بمصر أشد البوار ركوب الحمار وكحل الغبار
وخلفى مكار يفوق الرياح لا يعرف الرفق مهما استطار
أنادي به مهلا فلا يرعوى الى أن سجدت سجود العثار
وقد مد فوقى رواق الثرى وألحد فيها ضياء النهار

فدفعتم الى المكاري أجرته وقلت له : احسانك أن تتركنى أمشى على رجلى .

وهكذا أقال الله ابن سعيد من عشرته أو سجدته وخرج من رواق الثرى الذى أدخله فيه أو دفعه اليه المكاري المصرى المكار . .

وبعد أن يصف ناصرى خسرو جامع عمرو يفضى به الوصف الى السوق . . وكان السوق معلما من معالم المدن في ذلك العصر .

وعلى الجانب الشمالى للمسجد سوق يسمى « سوق القناديل » لا يعرف سوق مثله في أى بلد ، وفيه كل ما فى العالم من طرائف .

ورأيت هناك الادوات التى تصنع من الذهب كالأوعية والأمشاط ومقابض السكاكين وغيرها . . ورأيت كذلك معلمين مهرة ينحتون بلورا غاية فى الجمال ، وهم يحضرونه من المغرب . . وقيل أنه ظهر حديثا ، عند بحر القلزم ، بلور لطف وأكثر شفافية من بلور المغرب . . ورأيت أنياب الفيل ، أحضرت من زنجبار ، وكان وزن كثير منها يزيد على مائتى من . . كما أحضر جلد بقر من الحبشة يشبهه جلد النمر ، ويعملون منه النعال . . وقد جلبوا من الحبشة طائرا أليفا كبيرا ، به نقط بيضاء وعلى رأسه تاج مثل الطاووس . .

ويصنعون بمصر الفخار من كل نوع ، وهو نظيف وشفاف بحيث إذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهر من الداخل ، وتصنع منه الكئوس

والأقداح والأطباق وغيرها ، وهم يلونونها بحيث تشبه البوقلمون
فتظهر بلون مختلف في كل جهة تكون بها ، ويصنعون بمصر قوارير
كالزبرجد في الصفاء والنظافة

انه الفن .. هوى مصر وهوايتها منذ القدم .. لقد شكلت مصر
في « العصر العتيق » أى في الأسرة الأولى والثانية قبل عصر بناء الأهرام -
شكلت مصر ذرات الصوان وشكلت من البلور الصخرى ألوانا من الآنية
فيها الحس الصافي للشكل .

ان العصر العتيق أعز فترة في تاريخ البشرية كلها لا مصر
وحدها .

ان رؤوس السهام والأواني ارهاصات بفن النحت أى لغة
التشكيل .

ان الأواني المصرية فيها حس له روعة خاصة .. فيها العطاء الناضج
لفن الاناء .. فيها القلب البشرى ينبض لم يعله سأم .. سأم آخر
الحضارات .

وليسست المسألة التشكيل على ذروته ، ولكن « ادراك القيمة »
وهو معنى نريد أن نفرسه ونعمقه في نفوس صغارنا فان التربية هي
غرس التاريخ في النشء ولامر ما يعبر أولاد البلد عن طعن ..
انسان أو سحقه بقولهم « يعدمه العافية » .

ان التربية الحقيقية تعطى العافية .. القوة .. الأمل .. الحلم ..
الارهاصات أى .. همس الوجدان .

ان أزمة الانسان المعاصر أن وجدانه لا يضيء تقدمه التكنولوجي
فملك الآلة ولم يملك السلوك وحسن الاستعمال .

ان الأهرام ليس منجز مصر الوحيد فاللغة والكتابة منجز حضارى ،
كالعمارة ، راثع . الادارة منجز حضارى بارع .

الرى منجز حضارى كبير .

التشكيل ، الذى بهر عبد اللطيف البغدادي ، منجز حضارى أنيق

هنا على هذه الأرض نضج الانسان .. والنضج وعى .. والوعى
سعى .. انه تحريك القوى في كل مجال .. وهذا بعينه حدث في مصر .

وجاء القاهرة ابن خلدون المؤرخ الفيلسوف العالم الاجتماعى

الأديب الذى يعد قمة فى تاريخ الحضارة الاسلامية وفى تاريخ الحضارة الانسانية وأحد القلائد الأفاضل الذين يجمع الشرق والغرب معاً على اكبارهم .

استشرف ابن خلدون الى القاهرة فى القرن الثامن الهجرى بعد أن شارك فى أحداث تونس السياسية والاجتماعية حتى نهاية الحلقة الخامسة من عمره وناء بما حمل فأزعم الرحيل الى مصر ٠٠ الى مجالات القاهرة كعبة الحضارة الاسلامية بعلومها وأعلامها وكأنه كان يقتفى أثر ابن بطوطه الذى سبقه اليها قبله بنصف قرن .

وما كاد ابن خلدون يدخل القاهرة حتى هتف وقد وقع فى بحران من الحماسة السكرى يقول :

(رأيت حاضرة الدنيا وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج النذر من البشر واوان الاسلام وكبرى الملك تلوح القصور والأواوين فى جوه ، وتزهو الخوانق والمدارس والكواكب بأفائه وتضيء البدور والكواكب من علمائه ، قد مثل بشاطئ النيل نهر ، ومذبح مياه السماء يسقيه العلل والنهل سيحه ، ويحبى اليهم الثمرات والخيرات ثجه ، ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة ، أسواقها تزخر بالنعيم) .

وفى القاهرة تطلع ابن خلدون الى الجامع الأزهر وهناك تحلقت حوله الندوة . يقول أبو المحاسن بن تفرى بردى :

(واستوطن - ابن خلدون - القاهرة وتصدر للاقراء بالجامع الأزهر مدة ، واشتغل وأفاد) .

ويقول السخاوى :

(وتلقاه أهلها - أى أهل مصر - وأكرموه وأكثروا ملازمته والتردد عليه . بل تصدر للاقراء بالجامع الأزهر مدة ، ويقول عنه الحافظ بن حجر العسقلانى :

(وكان مسناً فصيحاً ، حسن الترسيل وسط النظم مع معرفة تامة بالأمور خصوصاً متعلقات المملكة) .

ثم اسند اليه السلطان التدريس بالمدرسة القمحية بجوار جامع عمرو . وقد استهل عمله فيها بخطبه طريفة حفلت بالسجع وهو صاحب الأسلوب المتحرر من قيود البديع . ولست أدري ما الذى جعله يلتزم

السجع في ذلك اليوم ٠٠ لعله لون من التعبير عن الفرحة بمنصبه الجديد ٠٠

ليس طريفا أن يقول ابن خلدون صاحب المقدمة :

(ولما سبحت في اللج الأزرق ، وخطوت من افق المغرب الى المشرق ، حيث نهر النهار ينصب من صفحة المشرق ، وشجرة الملك التي اعتز بها الاسلام تهتز في دوحة المعرق ، وأزهار الفنون تسقط علينا من غصنه المورق ، وينابيع العلوم والفضائل تمد وشلنا من فرائه المغدق ٠٠ أولوني عناية وتشريفا وغمروني احسانا ومعروفا ، وأوسعوا بهمتي ايضا ، ونكرتي تعريفا ٠٠ ثم ٠٠ الخ) .

وفي سنة ٧٨٦ هـ (١٣٨٤ م) عين قاضيا لقضاة المالكية . ومع ما لهذا المنصب المرموق من مكانة رفيعة ، فإن ابن خلدون لم يقل فيه خطبة مسجوعة - يبدو اني وقعت ، أنا أيضا ، في السجع - بل انطلق على سبيلته يقول بلا تزويق :

(وأقمت على الاشتغال بالعلم وتدريسه الى أن سخط السلطان على قاضي المالكية يومئذ في نزعة من النزعات الملوكية فعزله واستدعاني للولاية في مجلسه وبين امرائه فتفاديت من ذلك وأبى الامضاء) .

ولا يخفى ما في هذه العبارة من سخريه من الملوك ذوي (النزعات) ٠٠ على أنه لم يلبث أن عزل في قول بعض المؤرخين ، أو قبل رجائه بالاعفاء ، أي قبلت استقالته بلغة عصرنا ٠٠

لم يكن قد انصرم عام على تولية القضاء حين أقصى عنه أو استقال منه فعاد الى التدريس وخلص الى التأليف وفيما بين هذا تكرار العود والاقضاء ، أو العزل والاسناد .

حاول ابن خلدون أن يوثق عرى الصلة بين مصر والمغرب بالصلوات فكتب الى سلطان تونس يحثه على التودد الى ملك مصر بالهدايا والالطاف ، فتدفقت الهدايا على القاهرة من سلطان تونس ، وأمراء المغرب ويبدو أنها كانت كثيرة الى درجة تخصيص يوم لمرضاها ٠٠ يوم يقول عنه ابن خلدون انه شعر فيه (بالفخر وحسن الذكر بما تناوب بين هؤلاء الملوك من السعي في الوصلة الثابتة على الأبد) .

وهكذا استقبلت القاهرة ابن خلدون وأفسحت له مكانا فيها في قاعات الدرس وساحات القضاء ، وحظي فيها باقبال الناس وتقدير الحكام وطيب المقام .

أكرمت مصر وفادته وأسبغت عليه نعمة أثارت حسده مواطنيه أنفسهم فأبن عرفه مفتى تونس يقول :

(كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب فلما وليها هذا عدونا بالضد من ذلك) . .

هذا حين اثنى عليه وانصفه من العلماء والمفكرين المصريين أعلام منهم : المقرئى فى كتابه (السلوك) و (درر العقود الفريدة) وأبو المحاسن بن تغرى بردى فى منهله الصافى ، والقلقشندى فى موسوعته (صبح الأعشى) .

ان أعظم أعمال ابن خلدون مقدمته التى كتبها لتاريخه . وهذه المقدمة كتبها قبل قدومه الى مصر ، ولكن مصر أتاحت لابن خلدون بما وفرت له من الهدوء وبسطة الرزق وأهم من هذا كله المناخ العلمى، مصر بهذا كله أتاحت له ان يراجع هذه المقدمة وان ينقحها ويصقلها ويضيف اليها أحداث سبعة عشر عاما فقد كان وقف فيها عند سنة ٧٨٣ هـ فبلغ بها فى مصر الى نهاية القرن الثامن الهجرى وبلغ بها وهذا هو الأهم - من حيث التفكير والتحجير مبلغا باقى الأثر .

لم يكن ابن خلدون فى تاريخه راوية يسرد الأخبار سردا ، بل كان يتعمق الأحداث ويعلل الظواهر الاجتماعية ويفلسفها ناقدا محللا .

انه فى مقدمة ابن خلدون من الآراء والنظريات الفلسفية والاجتماعية والسياسية ما سبق به (ميكافيللى) و (فيكو) الذى يحاول الايطاليون ان يجعلوه أول اجتماعى أوروبى ، ومونتسكيو وآدم سميث ، وأوجست كونت ممن جاءوا بعده .

وابن خلدون بترائه ، فى عين الغرب يقف فى صف مع الفلاسفة وعلماء الاجتماع والاقتصاد السياسى ويعتبره (فون كرىمر) مؤرخا للحضارة بما حصله من حديث عن النظم السياسية ومذاهب الحكم والاجتماع والاقتصاد وألوان العلوم والفنون والآداب . . ويؤيده فى هذا الرأى الكاتب الألمانى (فون فيسندنك) .

ويراه (دى بوير) غياسوفا لا يقل شأنا عن ابن سينا والغزالى وابن رشد وابن طفيل . .

و (لدفيج جمبلوفتش) يرى كما يقول الأستاذ عبد الله عنان ان ابن خلدون العالم الاجتماعى سبق كثيرا من أقطاب الاجتماع المحدثين

فهو قد اهتمدى الى نظرية الأجيال الثلاثة الخاصة بنهوض الأسر وانحلالها قبل ان يعرضها أوتوكار لورنتس في أواخر القرن التاسع عشر . ويقول جمبلوفيتش ان ابن خلدون يرتفع الى ذروة البحث الاجتماعي حينما يعرض ملاحظاته عن تفاعل الجماعات الاجتماعية وكيف أن هذه الجماعات نفسها انما هي ثقة الوسط . وأقواله في هذا المقام عن الأجناس الغالبة في منتهى الأهمية . وفي أقواله عن الوسط ومؤثراته ما يدل على أنه عرف (قانون التشبه بالوسط) قبل أن يعرفه داروين بخمسة قرون وفيما يقوله عن تشبيه الإنسان بالحيوان في الخضوع للقوانين الاجتماعية العامة ، ما يدل على أنه عرف مبدأ (وحدة المادة) قبل أن يعرف هيكل .

أما الأستاذ ناتانيل شميث الأستاذ بجامعة كورتل بأمريكا فيرى ابن خلدون مؤرخاً يمكن أن يوضح في صف مؤرخين مثل ديودوروس الصقلي ، وثقولاوس أو تروجوس بومبيوس ممن كتبوا في القرن الأول الميلادي أو مؤلفين من كتاب القرن الثامن عشر مثل جاليرير وشلسر ، هذا مع كونه يتفوق عليهم سواء في الانتفاع بالمصادر القديمة أو الرواية الأصلية . والمؤرخ المعاصر ارنولد توينبي يعتبر ابن خلدون سابغ سبعة وهم :

« توكوتيدروس (ثيوديد) ويوسيفوس ومكيافلي ، ويوليبيوس ، ولورد كلارندون ، وابن خلدون » .

ويرى توينبي مقدمة ابن خلدون بما فيها من فلسفة التاريخ (أعظم عمل من نوعه ، ابتكره أى عقل فى أى عصر ، أو فى أى بلد) . ويرى (الناميرا) مقدمة ابن خلدون (نظرية كاملة للحضارة) . ويقول فيها يروى عنه الأستاذ عبد الله عنان (كفى أنه فى القرن الرابع عشر ، حينما كانت دراسة التاريخ الأوروبى فى منتهى النقص ، ومنتهى البعد عن آراء كالتى يعرضها ابن خلدون ، ويدافع عنها ، قد كتب كتاباً كالمقدمة درست فيه أو افترضت كل المسائل ، التى غدت فيما بعد ، على تفهمها بمختلف الصور ، هى المهمة الجوهرية للمؤرخين المحدثين) .

وقد عاش ابن خلدون فى القاهرة بضعة وعشرين عاماً وتوفى بها وكأنه آثرها دار بقاء ومثوى خلود . ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر . وقد وصل الاثرى المصرى المغفور له الأستاذ حسن عبد الوهاب الى تحديد موقعها .

ما أحق هذا المكان أن يكون مزارا يقصده عارفو فضل ابن خلدون وتلاميذ فكره - وما أكثرهم وهو بهذه المنزلة خليق ..

هؤلاء بعض أهل الشرق من الرحالة والمفكرين . أما أهل الغرب فقد أولعوا أيضا بالقاهرة ..

قصارى هنا أن آتى ببضعة أمثلة .. وعن الأجانب الذين عشقوا القاهرة « ادوارد وليام » فى كتابه :

The Manners and Customs of the Modern Egyptians.

والكتاب (١) يتبلى القاهرة ويستميلها .. يهواها ويستهوئها .. ومنهم « جاستون فييت » (٢) الذى يقول (على طول الطريق من الأسوار الشمالية للمدينة الفاطمية الى حدود المدينة الجنوبية ، يصاحبنا نغم متناسق بخاتمه مهيبه حيث تسمع لحنا لنشيد رفيع فخم ، حين تواجه أسوار مسجد السلطان حسن ، أعيننا ، فى تحد قوى) ص ١١ .

ومنهم « ديزموند استيوارت » فى كتابه « القاهرة » الذى يقول :

(انها مدينة مسلمة نشأت بفضل دين محمد النبى العربى . هى عند المسلمين لا تقل جلالا عن مكة ، التى تتجه اليها قبلة الصلاة فى مساجد القاهرة ، ولا عن المدينة مثنى الرسول) ص ٨٥ .

ويقول عن الطابع الاسلامى فى القاهرة :

(حقا كل من زار بورصة (فى الاناضول) ورأى عمائرها لا يسمعه الا الاعجاب بالوانها الزاهية ، وان عشاق نقاء الشكل فى الفن المعمارى يهللون لقصر الصيد المسمى بالأخضر (فى كربلاء) أو لبقايا قصور سامرا (سر من رأى) التى بنيت فى القرن التاسع ، وان ضريح تاج محل الذى تنعكس واجهته على الماء له من المعجبين به قدر ما له من الهائمين بالتقاط صورته ولكنها جميعا اما أبنية فرادى ، واما - كما هو الحال فى بورصة - أبنية من نتاج عصر واحد . أما القاهرة فهى وحدها التى تشهد بتطور متصل قرنا بعد قرن ، يتدرج من السذاجة عبر البساطة الى تعقيد التركيب ، ومن الازدهار العقلى الى الذبول السقيم . وهكذا فان سجل حضارة بتمامها يتكشف على الحجر والاجر والخشب

(١) نقل هذا الكتاب الى العربية الأستاذ عدلى طاهر نور باسم : (المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم) .

(٢) (القاهرة مدينة الفن والتجارة) ترجمة الأستاذ مصطفى العبادى .

طوال زمن يزيد عن ثلاثة عشر قرنا هو الآن معروض للناظرين . وقد كانت بغداد خليفة بأن تنافس القاهرة ، ولكن بغداد ضربها المقلوب بعد سنوات قليلة من بناء قصر المستنصرية المشهور بانسجامه اللطيف . لذلك اذا أردنا أن نتذوق الفن الاسلامي بغير أن نفسده رقابة التفاصيل كما في قصر الحمراء ، وبغير أن يشوهه زخرف مبالغ فيه - كما في عمارة الهند - فينبغي لنا ، كما يقول ستانلي لين بول - أن نتأمل مساجد القاهرة وأضرحتها) .

وكتب عن القاهرة المهندس الفرنسي Hector Horeau في كتابه :

المطبوع ١٨٤١ Panomama D'Egypte et de Nubie.

تحدث عن القاهرة الحديثة دون أن تغيب عنه « منف » و « والفسطاط » و « العسكر » و « القطائع » ألم أقل انها « أم المدائن » ؟

وكتبت « لادى دف جوردوف » التي أحبت مصر حبا جما وترجمت باسمها حتى النهاية بل بلغ بها الخيال حدا (تحدث عن نفسها كمصرية عربية واعتبرت فيما اعتبرته ، أنها مسلمة) .

أما القاهرة فقد كتبت عنها ولما ينصرم على وصولها اليها غير أيام أنها (قد انغمرت في ألف ليلة وليلة الحقيقية ، وأن الحياة في القاهرة ما هي الا حياة ذهبية بلغت الحد الأقصى من التسامي والشعر بل الوجود فيها ليس الا خليطا من التعاطف والأدب الجم) .

ومتى كان ذلك ؟ تاريخ الرسالة ١١/١١/٦٢

كم ذا يكابد عاشق ويلقى في حب مصر كثيرة العشاق
مصر الكل . . ومصر القاهرة .

أما أبناء مصر فقد كتب منهم عن « القاهرة » القدماء والمحدثون . أبرز القدماء الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي صاحب (حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة) . . فقد وقف في كتابه على من كان بمصر من الصديقين والعلماء والأئمة وحفاظ الحديث والفقهاء والزهاد

(١) ص ١٣٤ من الترجمة العربية قام بها الأستاذ يحيى حقي .

(٢) كتاب (رسائل من مصر) .

والمُتصوفة والقصاص والمؤرخين والشعراء والأدباء بل الخلفاء والأمراء
والوزراء والقضاة .

وقبل هؤلاء جميعاً من دخلها من الأنبياء ٠٠ ومن ولدوا بها وكانت
لهم مربي ومبأة حضارية .

ولم يكتب السيوطي هذا الكتاب من فراغ فقد استقى معلوماته من
سلسلة طويلة من المراجع والمصادر ، نص عليها في صدر الكتاب ، وأشار
إليها في تضاعيفه .

مدارس مصر - مساجد مصر - آثار مصر - نيل مصر - معادن
مصر - جزر مصر - فواكه مصر - نبات مصر .

ولم يترك السيوطي شيئاً إلا كانت له عنده ، وقفة تطول أو تقصر
ولكن لا تقصر أو تحول .

ومعظم القول في هذا كله يطوف بالقاهرة .

... ..

أما المحدثون ، فقد كتب منهم عن القاهرة :

الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني في أعز كتبه (١) .

د . حسين فوزي في كتابه (سندباد مصري) .

د . عبد الجليل راضي في كتابه (واقاهرته) .

أ . حافظ محمود في كتابه (القاهرة بين جيلين) .

أ . شحاته عيسى إبراهيم في كتابه (القاهرة) .

أ . جمال الغيطاني في كتابه (ملامح القاهرة في ١٠٠٠ سنة) .

هذا غير كتب بين التاريخ والحضارة ٠٠ بين العمارة والأدب مثل
كتب المرحوم حسن عبد الوهاب وكتاب الأستاذ عبد الرحمن زكي
(القاهرة) .

هذا غير الذين كتبوا عن القاهرة من خلال أعمالها وأعمالهم .

مثل الأدباء والقصاصين والمؤرخين والجغرافيين .

(١) من هذه الكتب التي صورت القاهرة (إبراهيم الكاتب) ، (إبراهيم الثاني) -
(صندوق الدنيا) ، (من النافذة) .

فيجب محفوظ لم يكتب كتابا باسم القاهرة ولكن القاهرة كانت
تمتزوج بدمه حين كتب قصصه (خان الخليلي) و (زقاق المدق) وثلاثية :
قصر الشوق - بين القصرين - السكرية .

وتوفيق الحكيم كان يكتب عن القاهرة حين كتب (مسرح المجتمع) .
و (المسرح المنوع) .

حتى (عوالم الفرح) كن في تصويره ، لحظة من القاهرة .
وكتب عن القاهرة الأستاذ (فتحي رضوان) في كتابه (خط
العتبة) (١) .

والشاعر أحمد رامى ، بأغانيه ذات اللهجة القاهرية العذبة ، كان
يسمع القاهرة ويسمع القاهرة .

والشاعر ابراهيم ناجى صاحب ديوان (ليالى القاهرة) .
وغنى للقاهرة فاطرب ، الشاعر صالح جودت .

حتى ابن البلد فى الأسماء التى يطلقها على أطفاله فى البيت ،
وعلى دكانه خارج البيت ، انما يردد أسماء القاهرة . . . واذا عظم المرء ،
تعددت أسماؤه .

حتى أحياء القاهرة ظفرت بالكتابة عنها فكتب الدكتور طه حسين
عن حى الأزهر ، وحياة الأزهر وأيام الطلب ، والطلاب (٢) .

وكتب الأستاذ العقاد عن حى مصر الجديدة (٣) .
وكتب الأستاذ سند الكيلانى عن « الأزبكية » .

لقد كتب عن القاهرة ، الدين كتبوا عن مصر باعتبارها كما يقول
الدكتور جمال حمدان :

(عاصمة تستقطر وتستقطب روح الوطن وترمز الى جوهر كيانه
حضاريا وماديا ، جغرافيا وتاريخيا ، ربما كما لا تفعل عاصمة أخرى) .
وباعتبارها ، مصر ، اسما . . فان القاهرة يطلق عليها المصريون.
والعرب اسم « مصر » .

(١) من سلسلة الالف كتاب .

(٢) كتاب (الأيام) للدكتور طه حسين .

(٣) كتاب (فى بيتى) للأستاذ عباس محمود العقاد .

وكتب عن القساعة أولئك الذين كتبوا عن (النسطاط)
و (القطائع) و (العسكر) فهي هؤلاء جميعا ، وان اختلفت أسماء .
وهي بقدرتها الأولى على الاستيعاب ، احتوتها وضعا وموضعا . . تاريخا
وموقعا .

انها أم المدائن .

وليس اعتباطا بل اعتباطا أن يقول أوجين فرومفنان :

(بقبطة أدخل هذه المدينة الفريدة)

ومن أجمل الكتابات الحديثة عن القاهرة ما كتبه الأستاذ يحيى حقي
في مقدمة ترجمته لكتاب ديزموند استيوارت (١) ، والدكتور جمال حمدان
في بحثه الذي يتصدر الترجمة ، كما كتب عنها فصلا زائرا وباهرا
ثريا ، بها حفا في المجلد الرابع من موسوعة (شخصية مصر) .

يقول الأستاذ يحيى حقي :

(لم يستطع معول التنظيم العشوم ، ولا أكادس العمارات الشاهقة
المسلحة بالأسمنت ، ولا غوائل الشوارع الطارئة المفروشة بالأسفلت ،
ولا أحياء حجارة الدومينو تنبت كالقطر وتتضخم كالسرطان ، شقاء الى
القلب كالطعنة ، النجلاء ، أو لفا على جوانب ، غلاف فوق غلاف ، ولا ظل
قبة قميئة مستعارة وضعتها على الرأس ، يد عمياء مثلثة على التقليد
... لم يستطع شيء من هذا كله أن يمس طابعها الأصيل وجلالها المكنون
هبة لها من حضارة الشرق ، ونفحة من سمائه ، كلاهما خارج عن متناول
الزمن وعواديته . ان كنت تأنس لجمالها حين يطسوف به خيالك اذ هو
بالأمس في قصره ، في عز مجده فانك أشد أنسابه وأنت تزوره اليوم
فتراه منكشما منزويا في صومعته . . بقي من الثمرة سر الحياة والديمومة
في نواتها الصلبة ، هيبات أن تتحطم . . انها صلابة الدفاع المستميت
في آخر خندق . وهذا التجل بالستر اذ الحب فاطر ومنس أشد نبلا من
أريجيتها ، وأغداقها اذ هي مأخوذة بالأحضان والدنيا مقبلة . .

لم تستطع الأسطح المتعالية يوما بعد يوم أن تحجب مآذنها العديدة ،
باقية هي ناحية بشممها وشموخها ، ولا الضجة الهائلة التي اندلقت
عليها أن تخنق ضراعات هذه المآذن ، يخشع لها القلب وتطرب الاذن عند
مولد كل فجر . .

(١) مقدمة كتاب (القاهرة) تأليف ديزموند استيوارت ترجمة الأستاذ يحيى حقي .

جدران عتيقة يتراكم عليها التاريخ ، آية في فن العمارة ، في ذروة الصديق ، تصون داخلها أمثلة رائعة للجمال ، تحكى في صمت قصة آلاف من الفنانين بناء الحضارة عملوا في ورع وهم متطهرون ثم مضوا لا يعرف أسماؤهم أحد ، لا يذكرهم أحد ، حق لهم أن يتضاعف ثوابهم ، جزاؤهم عند رب ، بهم عليم .

وأسواق لاتزال متشبثة بإمكانتها ، كان لها جذورا ضاربة الى الأعماق ، هيهات أن تنقصف أو تذوى ، شاخت ولكنها لا تزال متشحة بأطياف من وسامة شبابها وزينة عرسها . تغير عن يمين ، عن يسار ، من حول . كأن واحد لا يتغير ابن البلد بكرمه ومروءته ، بلطفه وطرقة ، ببشاشته وخفة دمه ، بنكاته وقفشاته ، بذكائه وحضور بديته ، هو الذي رقى الغامية على لسانه وأثرها بأبداع مجاز واستعادة ، ساخر وحكيم ، تحسبه لطيبته غرا ولكنه « حويط » يلقط العملة الصحيحة ولو ممسوحة من بين عملات كثيرة زائفة « ولو براقه » لا ينطلي عليه الكذب والنفاق ودموع التماسيح .

هذه هي القاهرة ، ان كنت لا تعرفها يا أختي فاعرفها ، اذن ستحبها ، ستعشقها ، ستنضم الى زمرة عشاق لها كثيرين ، هاموا بها ولاء والتحاماً ، منذ أن ألقى في نهر النيل عندها ، ما تخلف عن ولادتهم من مشيمة مصروية في منديل ، عشق بالغريزة . . بالارث . . بالقسمة والنصيب والحمد لقد لا تعلل تصاريفه (. . .)

لكانه يتحدث ، أو هو كذلك ، يتحدث عن القاهرة اليوم .

... ..

ويقول الدكتور جمال حمدان عن القاهرة :

(إذا عدت المدن العواصم العظمى في العالم ، فالقاهرة واردة بالتأكيد في العشرة الأولى أو العشرة ونيف . وهي المدينة الأولى - المطلقة - في قطاع هائل متصل من العالم القديم قد يجاوز ثلثه مساحة ويتعدى آفاق القارة الأفريقية الى تخوم الألب ووسط آسيا . بل ان بضعة لا يستهان بها من الدول الأفريقية لتقل سكانا - سكان كل منها أقصد - عن حجم القاهرة كثيرا أو قليلا ، وذلك دون أن نذكر أن القاهرة تستأثر وحدها بنحو نصف سكان العواصم الأفريقية الخمسين مجتمعة !)

ويقول :

(لقد خرجت القاهرة عن وصاية الجبل الأبوية ، وانساحت من المقطم الى الهرم ومن الصحراء الى الصحراء ، ومن حلوان الى شبرا الخيمة ، وبعد أن بدأت بحدود صارمة كالخط الهندسى هى سور المدينة أصبحت تتخلل المزروع وتخلخله كمدينة بلا حدود • ومن السهل أن تتبّع انعكاس هذا كله رقميا فى تعداد السكان ، ولكن يكفى هنا أن نذكر أن المدينة التى بدأت مع محمد على ربع مليون وانتهت معه ثلث مليون قد تعدت الآن الخمسة ملايين) •

وأضيف « تعدت العشرة ملايين » •

وهى عنده وعندى أولا وأخيرا العاصمة التى تستقطر وتستقطب روح الوطن وترمز الى جوهر كيانه حضاريا وماديا ، جغرافيا وتاريخيا ، ربما كما لا تفعل عاصمة أخرى) •

من مؤلفات الكاتبة

- شخصية مصر الهيئة العامة للكتاب
- رحلة الشرق والغرب الهيئة العامة للكتاب
- أدب المازنى الهيئة العامة للكتاب
- أم كلثوم وعصر من الفن الهيئة العامة للكتاب
- من عبقرية الاسلام دار المعارف
- الأدب والحضارة دار المعارف
- الجمال والحرية والشخصية الانسانية فى أدب العقاد دار المعارف
- أحمد رامى (قصة شاعر وأغنية) دار المعارف
- قمم أدبية عالم الكتب
- رسائل الى ابنتى عالم الكتب
- النيل فى الأدب المصرى عالم الكتب
- مشروع هضبة الأهرام أخطر اعتداء على مصر عالم الكتب
- شعب وشاعر (أبو القاسم الشابى) عالم الكتب
- خصائص الشعر الحديث دار الفكر العربى
- مصر تدخل عصر النفايات دار الفكر العربى
- (بالاشتراك مع الدكتور حامد ربيع) دار الهلال
- التراث والحضارة دار الحرية
- أزمة الشباب وهموم مصرية دار غريب
- الاسلام وانسان العصر (العودة الى المنبع) دار المستقبل العربى
- صناعة الجهل

فهرس

الصفحة

كلمة ٥

القاهرة فى حياتى ٧ - ٥٢

نقطة تحول « حلوان الثانوية » كانت القاهرة - أهل
البيت - خان الخليل - أسلوب القاهرة - السلطان
الحقيقى - الامام الليثى - الأزهر الشريف - جبل
المقطم - حديقة الأزبكية - المسرح - الأوبرا -
المقاهى الفنية - الاحتفال بوفاء النيل -

القاهرة بين الأسس واليوم ٥٣ - ٩٥

صور غابت عن القاهرة
القطاطرى - بائع العرقسوس - الماكينة - الفوتغراف
- الزار - آنية النحاس - المحمل - الحنطور -
شقة للايجار - عفريت الليل - الحمام - أقوال
يومية - القافية - الأغاني - الخلخال - طاسة الخضة
- الفران - الحدايق - الهدوء -

رمضان فى القاهرة ٩٧ - ١٣٠

تقاليد واستقباله - المسحراتى - المرق والحلق
والحلق - القطايف والكنافة فى الأدب - فانوس
رمضان - الحوانيت فى رمضان - فستان العيد -
الثلث الأخير من رمضان - لقاء الصفوة - الأستاذ
الزيات - الأثرى حسن عبد الوهاب - أحمد رامى -
زكريا أحمد - بيرم التونسي - مولد كتابى -

الصالونات الأدبية ١٣٩ - ١٣١

صالون آل عبد الرازق - صالون مي - المجامع
الأدبية - الاستاذ العقاد -

قالوا عن القاهرة ١٥٦ - ١٤١

- ناصري خسرو - البغدادي - ابن خلدون - ادوارد
وليام لين - ديزموند ستيوارت Hector Horeay
- السيوطي -
- د . حسين فوزي - د . عبد الجليل راضي -
حافظ محمود - شحاته عيسى ابراهيم - جمال
الغيطاني - حسن عبد الوهاب - عبد الرحمن زكي -
- نجيب محفوظ - توفيق الحكيم - فتحي رضوان -
أحمد رامي - ابراهيم ناجي - صالح جودت -
د. طه حسين - الاستاذ العقاد - سند الكيلاني -
د . جمال حمدان - الاستاذ يحيى حقي -

د . نعيمة أحمد فؤاد

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٦/٤٢٧٢

ISBN - ٩٧٧ - ٠١ - ١٠٥٤ - x

كل من يؤمله تشويه جمال الفاتنة أم المدائن عاصمتنا القاهرة ويتمنى أن يراها
كما كانت :

- الأحياء الشعبية بمذاقها الخاص .
- أهل البيت على أرضها وفي وجدانها .
- الأزهر الشريف .
- أسلوبها في الفن والصناعة وحياة كل يوم .
- صالوناتنا الأدبية .
- مواقفها مع الحكام .
- حديقة الأزيكية والأوبرا والمسرح ومنتديات شارع عماد الدين من
مفاتيح القاهرة .
- من يريد أن يرى الصور التي غابت عن القاهرة .
- من يريد أن يراها في عين الغرباء من شرق وغرب ممن كتبوا عن القاهرة ،
وقالوا عن القاهرة .
- ذكريات الكاتبة مع أعلام الأدب والفن :
- العقاد - أحمد لطفى السيد - الزيات - أحمد رامى - بيرم التونسي - زكريا
أحمد - السنباطى .
- دنيا عريضة من الصور والأعلام والثقافات في هذا الكتاب .